الوضع القبلي في سوريا

رسالة قدمها يسس مخير الى كلية الاداب في الجامعة الاميركية لنيل شهادة استاذ في العلوم، في العلوم السياسية .

الاهـــــــــداء :

بـرا بوالـــــدى ..

واعـترافـا بفضـله بمـا انجـزت وما قـد انجـز

مـن اعمـــــال .

يـس منـــير

تصدير

كلما اخذ المجتمع باسباب التقدم والحضارة ، كان الانسجام بين افراده اتم واعظم ، وبقاء جزء كبير من سكان سوريا فى حياة قبلية معناه نقص الانسجام بين هؤلاء السكان ووجود ثلم فى كيانهم القومي . ذلك لان القبائل تعيش حياة لا تتصل بحياة سكان المدن فى سبب من الاسباب . ولن يسد هذا الثلم فى الكيان السورى (وفى كيانات البلاد العربية الاخرى) الا بنقل تلك الكمية من السكان من حالة البداوة الى حالة الحضارة ، اى بتحضير القبائل .

وتحضير القبائل يستلزم دراسة وافية لاحوال المجتمع القبلي وعاداته وتقاليده . واذا كنت ابعد من ان اقوم بعمل هذه الدراسة لاتساع نطاقها وضيق الوقت وعدم توفر المصادر اللازمة ـ فحسبي ان اثير هذا الموضوع لعله يستاثر بعد اليوم باهتمام حكومات البلاد العربية وقادتها ، فيسارعوا الى معالجة مشكلة الوضع القبلي بحكمة واخلاص .

اما العناء الذى لاقيته فى جمع المعلومات المبعثرة فى بطون الكتب قديمها وحديثها ، فقد كان تخففه علي رعاية استاذى الدكتور نبيه امين فارس الذى كان يبعث في روح الجد والاقدام كلما نالني ملل او فتور ، والذى لولاه لما استطعت ان اتابع دراستي فى هذه الجامعة . فله شكرى وتقديرى .

ولا انسى المعونة الكبرى التى قدمها الي الاستاذ جلال السيد فى شتى مناحي الرسالة . فاستقيت منه المعلومات المتعلقة باحوال القبائل السورية ، الاجتماعية والقضائية ، مستفيدا من خبرته الواسعة وكثرة احتكاكه بحياة البداوة . فله مني اجمل الشكر والامتنان .

ولاساتذتي واخواني جميعا الذين آزروني وشجعوني ، محبتي وتقديرى .

٣ - ٦ - ١٩٤٦ يس صغير

الفهـــرســـت

" مقدمة "

المجتمع الاول : نشوء القبيلة

كانت معرفة العلماء باحوال المجتمع الاولى ،الى عهد قريب ،ضئيلة بحيث لم يتيسر لهم رسم صورة واضحة عن الانسان القديم والظروف والاسباب التي تفاعلت مع افكاره ومشاعره فاحدث هذا التفاعل نظما اجتماعية تطورت باستمراره وتطوره.

ولقد اصبحت معرفة المجتمع الاولى والالمام بخصائصه وظواهره من نصيب علماء الاجتماع الذين شرعوا يبددون ما اكتنف تلك المعرفة من غموض وابهام شيئا فشيئا.

وليس علم الاجتماع من حيث غاياته واهدافه حديثا. فقد عرفه ابن خلدون، الفيلسوف العربي الاجتماعي، منذ خمسة قرون وسماه علم العمران البشري. ولكن وسائل البحث الاستقراء العلميين لم تكن متيسرة آنئذ بحيث يتيح لابن خلدون القيام بدراسة شاملة لاحوال المجتمع الاولى. زد على ذلك ان علماء الاجتماع في العصور المتأخرة لم يكلفوا انفسهم عناء درس ابن خلدون درسا صحيحا وافيا كي يقدروه حق قدره. وقد لجأوا في دراساتهم الى مصدرين رئيسيين: ١ـ الحقائق البيولوجية والجيولوجية التي تكشف لنا طبيعة الانسان القديم ومميزات بيئته. ٢ـ الملاحظات المأخوذة عن المجتماعات المتوحشة التي لا تزال قائمة في عصرنا الحاضر. بيد ان هذين المصدرين لا يعيناننا كثيرا. فالسجل الجيولوجي لم يكشف لنا امورا كثيرة ذات قيمة بالنسبة الى علم الاجتماع. وعلى الرغم من توافر الادلة التي تحملنا على افتراض التشابه بين احط الجماعات البشرية المعاصرة وبين الجماعات الاولية القديمة، فان لدينا من الاسباب ايضا ما يثير في نفوسنا الشك والحذر من صحة هذا التشابه (١) اذ لا نستطيع ان نتجاهل اثر التفاعل الحاصل بين الانسان و محيطه خلال الاجيال الطويلة السابقة في رفع مستوى

---

(١) Franklin H. Giddings, The Principles of Sociology (New York, The Macmillan Company, 1911) p. 264

الجماعات البشرية، قليلا ام كثيرا، عن المستوى الاولى القديم· فكان طبيعيا، والحالة هذه،ان يحصل تباين واضح بين النظريات المتعددة التي وضعت لتفسير نشوء المجتمع وتطوره·

واول نظرية تشبث بها علماء الاجتماع لتفسير التطور البشرى هي النظرية القائلة ان التطور البشرى سار على مراحل تصاعدية منتظمة،ادناها مرحلة وجود الافراد اشتاتا عزلاء· وان الافراد كونوا اسرا واتحدت الاسر لتكون قبائل والقبائل امما· وان الامم صائرة الى الاتحاد لتؤلف دولا متحدة وبالتالي مجتمعا انسانيا واحدا (١) تفترض هذه النظرية ان النظام الاجتماعي عند الجماعات البشرية في مرحلة معينة من سلم التطور، واحد يؤدى وظائف ثابتة معينة بصرف النظر عن اختلاف البيئات المكانية التي تعيش فيها تلك الجماعات والعوامل الاخرى التي تعمل في جماعة معينة غير ما تعمله في جماعة اخرى·(٢) تمتاز هذه النظرية بالبساطة ولكنها بساطة على حساب الحقيقة· فعملية التطور اكثر صعوبة واشد تعقيدا والتواء مما ذكرنا· الحضارة تراكمية (Cumulative)· ولكن سيرها التراكمي غير منظم الخطوات· فكل تعديل يصيب النظام الاجتماعي يستلزم فترة طويلة تتكيف فيها مفاهيم الناس وعاداتهم وفق ذلك التعديل الحاصل· وقد تحدث خطوة تقدمية هنا تقابلها خطوة تأخرية هناك· وفي هذا الشذوذ –كما يقول بلاكمار– نكتشف مجرى التقدم البشرى الصحيح·(٣)

ان الفكرة القائلة بان الانسان القديم كان يعيش في مستهل حياته اعزل بعيدا عن اى شكل من اشكال الاجتماع– هذه الفكرة التي شغلت، في وقت ما، اهتمام الفلاسفة كثيرا لم تعد اليوم اكثر من " وهم ميتافيزيقي خالص" (٤)

---

(١) G.P. Conger, New Vews of Evolutions (New York, 1929) p. 75

(٢) Jerome Davis and Harry E. Barnes, An Introduction to Sociology (U.S.A. Heath and Company, 1927) p. 41

(٣) Frank W. Blackmar, History of Human Society (New York Scribner,1926) pp. 9 - 10

(٤) Davis and Barnes. p. 41

لقد كان متعذرا على الانسان القديم ان يعيش منكمشا على نفسه منعزلا عن غيره في ظروف قاسية لا يستطيع فيها ان يدفع عن نفسه عوادى الزمن ويدرأ وحده الاخطار المحيطة من كل جانب. بل يكاد يكون الانعزال اكثر تيسرا للانسان المتمدن منه للانسان القديم. وحتى في هذه الحالة يكون الانعزال غير حقيقي لان وسائل النقل الحديثة حطمت المسافات وغزا الفضول العلمي مجاهل العالم واقاحيه.

ونحن نلمس روح الاجتماع بارزة في اكثر اصناف الحيوانات. فحين اكتشف الروس سيبيريا وسيطروا وجدوها مزدحمة بتحشدات حيوانية من كل جنس. ولا تزال ادغال مناطق خطوط العرض المنخفضة في آسيا وافريقيا موطنا لجماعات حيوانية متعددة [1] وتتجلى روح التعاون والتآزر عند بعض الحيوانات في تنبيه بعضها بعضا الى الخطر الداهم واجتماعها على درئه او الهرب منه. والخدمات التي تتبادلها الحيوانات على تفاهتها كثيرة. يدلنا ذلك كله على ان روح الاجتماع عند الانسان بعيدة الاصول عريقة في القدم. [2] فليس غريبا، والحالة هذه، ان يكون الانسان، وهو اعلى الحيوانات مرتبة، حيوانا اجتماعيا — او بعبارة ابن خلدون مدنيا بالطبع [3]

والعوامل التي تفعل في تقرير شكل الاجتماع البشرى ومداه وخلق التمايز بين المجتماعات البشرية متشابكة شتى. وطبيعي ان يكون العامل الاقتصادى :

---

(١) Giddings. pp. 80-81

(٢) Charles Darwin, The Descent of Man, (London, The Thinker's Library, 1945) p. 107

(٣) ابن خلدون، المقدمة (المطبعة البهية المصرية) ص. ٣٥

توزيع الطعام وتوفره ،اشد هذه العوامل تاثيرا • ولا يزال هذا العامل عظيم الاهمية بالرغم من شيوع الافكار والعقائد في حياة الانسان • يقول ابن خلدون " ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله .... " (١)

ويقوم تفاعل مستمر بين المحيط وسكانه • يحولون باجتماعهم موارد محيطهم الى قوة منتجة مثمرة تكون بدورها مدعاة الى تكثيف الاجتماع والاخذ باسباب الرقي والنهوض •

ما هي اول وحدة اجتماعية عرفها الانسان ؟ تضاربت اراء علماء الاجتماع في الاجابة على هذا السؤال • فبعضهم يرى ان الحي (الفخذ) هو اقدم وحدة اجتماعية ابتداء بها تطور الانسان • (٢) ويزعم هؤلاء ان الاسرة بدعة حديثة ومؤسسة اقل لصوقا بحياة الانسان واسرع تفككا من وحدة الفخذ • ويرى بارتون في حياة العرب وتاريخهم مصداقا لهذا الراى وشاهدا على صواب هذا المذهب • فالفخذ عند العرب ،في رايه ،هو اساس تنظيمهم الاجتماعي والسياسي وفكرته اصيلة في تقاليدهم راسخة في تاريخهم ،استطاعت ان تقاوم تاثير الاسلام وفعل التحضر الذى دفعوا اليه بحكم تاسيسهم دولة وتشييدهم مجدا وسلطانا • وانها ـ فكرة الفخذ لا تزال موجودة حيث يوجد العرب اليوم • (٣)

ولكن الفئة الغالبة من علماء الاجتماع تميل الى الاعتقاد ان الاسرة هي اول رابطة اجتماعية عرفها الانسان • والحجج التي تتذرع بها هذه الفئة كثيرة قوية بحيث يكاد يصبح رايها حقيقة علمية ثابتة لا تقبل الجدل والنقاش • فبارتون الذى اعتبر الفخذ في كتابه " اصل الساميين" اول رابطة اجتماعية • محاولا ان يدعم رايه ـ كما راينا ـ بملاحظات عن حياة العرب ،اضطر الى الاعتراف بخطاء رايه في كتابه " اصل الساميين والحاميين " مشيرا الى ان الاسرة هي الاساس الاول

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٤

(٢) Robertson W. Smith, <u>Kinship and Marriage in Early Arabia</u> (London, 1907) pp. 4-5
" " " <u>Lectures on the Religion of the Semites</u> (London, 1923) p. 35

(٣) George A. Barton, <u>A Sketch of Semitic Origins</u> (New York, 1902) pp. 32-33

للاجتماع البشرى . (٣) (١)

فحاجة الطفل الى امه لتحضنه وتعيله وتحميه خلقت رغبة الاجتماع وتبلورت هذه الرغبة في تكوين الاسرة . ومهما كان التماسك في الفخذ عند العرب شديدا فالاسرة اعمق تاصلا في حياتهم الاجتماعية واشد تاثيرا في تقاليدهم وعاداتهم . والتكتلات القبلية التي نشاهدها في حياة العرب انما هي وليدة نحلة معينة من المعاش . وهي -كما يلاحظ مولر- صائرة الى الانحلال والفناء ان عاجلا ام آجلا ،انما يحول دون تفككها عامل المصلحة والمباشرة وقوة الاستمرار . (٢)

وللاسرة وظائف جمة تؤديها في خدمة التقدم البشرى . فحفظ النوع البشرى ،على اهميته ،ليس سوى وظيفة واحدة من وظائفها المتعددة . فالى جانب هذا العمل البيولوجي تقوم الاسرة باغناء الشخصية الانسانية ونقل الحضارة من جيل الى جيل . وهي تسهل سبل العيش وتيسر اسباب الرخاء الاقتصادى (٣)

كيف كانت الاسرة ؟ لقد تعرضت الاسرة لتغيرات عديدة متوالية خلال الاجيال الطويلة ولم تكن في فجر تاريخها من المتانة والتماسك كما هي عليه الان . كانت هزيلة البناء فقيرة في العادات والتقاليد . ولا تزال نلمس هزالة الحياة العائلية في الاجناس المنحطة التي تعيش في جزر المحيط الهادى وافريقيا واميركا الجنوبية ،حيث تقوم الاسرة على اساس واه من المصالح الموقتة والعادات الفاسدة . (٤) والزواج عند هذه الجماعات المتوحشة ~~على~~ عمل موقت لا يلبث ان يترك فيه الزوج زوجته سريعا ليستولي على غيرها او يستبدلها بزوجة رجل اخر . (٥)

---

(١) George A. Barton, Semitic and Hamitic Origins , (Philadelphia, 1934) p. 95

(٢) Victor Muller, En Syrie avec les Bedouins , (Paris, 1931) p. 199

(٣) Stuart C. Dodd, Social Relations in the Near East, 2d. ed. (Beirut, 1940) p. 36

(٤) Frank W. Blackmar, History of Human Soceity (U.S.A. Scribner, 1926)p.110

(٥) Giddings. p. 264

اذا كانت الاسرة القديمة على مثل هذا التراخي والتفكك وكان الزواج عملا موقتا ،فطبيعي ان تكون الاسرة القديمة ذات طرف واحد من حيث علاقات افرادها ونسبهم . فاذا استمدت سبب وجودها من الاب ورجعت بنسبها اليه كانت اسرة ابوية (patriarchal family) واذا رجعت الى الام كانت اسرة امومية (matriarchal family)

على الرغم من توفر الادلة القاطعة التي تشير الى ان الاسرة الامومية كانت الغالبة على الجماعات البشرية في مستهل نشوئها ،وانها كانت شائعة عند معظم الشعوب السامية وعند بعض الشعوب الاخرى كاليونان والجرمان ،وان الاسرة الابوية جاءت على انقاض الاسرة الامومية لان قيامها يفترض حدوث تطور اجتماعي سابق [1]ـ اقول على الرغم من هذا كله فثمة عوامل عديدة تفعل في تقرير شكل الاسرة في بيئة دون اخرى . ولعل اهم هذه العوامل هو العامل الاقتصادي . فاذا كانت ظروف الحياة قاسية وكان الغذاء غير ميسور الحصول بدون جهود الرجال ،فانه يتحتم على الرجل عندئذ ملازمة اسرته وتوفير الغذاء لها فيقوى نفوذه على حساب نفوذ المرأة ،وبالتالي تصير اليه السيادة وتنتهي اليه وشايج الدم والقرابة . نرى ذلك عند الاسكيمو في كرينلاند حيث يتعذر على المرأة ان تكافح قساوة الطقس وشظف العيش لتعيل اولادها وتحميهم . اما في المناطق الحارة ،كادغال جزر اندامان ،حيث الجفاف وسهولة المعاش ووفرة الغذاء ،فالمرأة تستطيع ان تقوم وحدها باود اسرتها دون حاجة الى مساعدة الرجل فتنشاء الاسرة الامومية .[2] ولا بد من الملاحظة ان الاسرة الامومية لا تعني سيادة المرأة على الرجل واستحواذها على مقاليد الامور ،ولكن منطق الجيل آنئذ ،حين كانت الامومة دون الابوة مبعث التوجيه والارشاد ،تؤيده الحقيقة الثابتة : ان علاقة الام بطفلها امتن واقوى منها بين الاب وولده ـ

---

(١) Henri Shaeffer, <u>The Social Legislation of the Primitive Semites,</u> (Yale University, 1915) p. 8

(٢) Giddings. pp. 265 - 267

يقضى ان يعتد بالانتساب من جهة الام فقط . فكان الزواج مصدر المراكز في الهيئة الاجتماعية . فالرئيس او الملك يفقد سلطانه في حالة وفاة زوجته او انتقالها الى زوج اخر . وتصبح المرأة اداة نقل للسلطان من غير ان يكون لها مشاركة عملية في ممارسة هذا السلطان . وذلك على نقيض الاسرة الابوية ، اذ يتمتع الاب بسلطة مطلقة على امرأته واولاده وفي حال وفاته تؤول السلطة الى اكبر الذكور . وتشمل هذه السلطة جميع تصرفات من يعيش في ظلها ، حتى لا يكاد يختلف هذا النظام ـ نظريا ـ عن نظام الرق . (١)

تنتقل الاسرة الامومية الى اسرة ابوية بحكم عوامل شتى ، اهمها النهب والسطوة الذى يدفع الرجل الى محاولة اقتناء زوجات عديدة وقهرهن على معايشته في البيئة التي هو فيها . فيؤدى ذلك الى زعزعة نظام الاجتماع السائد في كل من بيئة الرجل والمرأة ويمهد السبيل لقيام الاسرة الابوية . ففي جزر الوتار ، حيث يسود النظام الاموي ، نجد ان عملية الانتقال تجرى بفعل النهب والسطوة . غير ان هذا العامل وحده لا يكفي لنجاح عملية الانتقال . فينبغي على الرجل ، مثلا ، ان يحافظ على سيطرته على ازواجه ويمنعهن من العودة الى بيئاتهن . وقد كان الدين عاملا مهما في تسهيل حدوث الانتقال وتقويض النظام الاموي . اذ ان النزاع قد يقع بين طوطم الرجل وطوطم المرأة (سنأتي على ذكر الطوطمية في اخر البحث) ويتبع الاولاد بحسب عرف النظام الاموي طوطم امهم . ولكن ملازمتهم بيئة ابيهم ، فيما بعد ، خلقت اضطرابا في اوضاع المجتمع . واصبح وجود طوطمين في بيئة واحدة مثار مشكلة معقدة عويصة بالنسبة الى العقلية الاولية . فلجأ الناس ، عندئذ ، الى حل عملي وطد سلطان الاب وساعد على دك الاسرة الامومية : وهو ان ياخذ الاولاد بطوطم ابيهم ويعتنقون دينه .

---

(١) Shaeffer . pp: 9 - 10

فعند زنوج غينيا نجد ان النظام الاومي مهدد بالانقراض بحكم شراء الرجل زوجة له والحاقها واولادها بدينه (١)

ولا بد من التنويه ،اخيرا ،الى ان نظام الاسرة ليس مرحلة عابرة في سلم التطور البشري تزول باتخاذ المجتمع اشكالا اخرى من التنظيم كالعشيرة او القبيلة او الامة . انه دعامة اساسية لمختلف نظم الاجتماع الانساني . وان الاسرة لتزداد تلاحما ورسوخا كلما اخذت الجماعات البشرية باسباب الرقي والكمال وازدادت تكتلا وتراصفا .

والرابطة التي تلي الاسرة اتساعا هي رابطة الحي او الفخذ . والفخذ هو مجموعة اناس يتحدرون من اصل واحد من جهة الاب او من جهة الام ويؤلفون كيانا اجتماعيا سياسيا يستقل في ادارة تصرفاته العادية عن الكيانات الاخرى التي تعيش معه في بيئة واحدة . وقد يتسع الفخذ وينمو وعيه الاستقلالي فيؤلف كيانا اكبر هو العشيرة . فاذا اخذت الحياة بالتعقيد ومصالح الناس بالتشابك وادى هذا التشابك وذلك التعقيد الى خلق النزاع والمخاصمات بين الجماعات البشرية ،فان العشائر تتكتل بعضها الى بعض قبائل درءا للاخطار المحيقة بها ورغبة في بسط نفوذها على الاخرين . فقيام القبيلة ،اذن ،ليس عملا ايجابيا ،بل هو نتيجة اسباب سلبية معينة وظروف خاصة . وقد عرفها ريفرز بقوله : انها كل اجتماعي من نوع بسيط يتكلم افراده لهجة واحدة ويخضعون لسلطة واحدة ويعملون لاهداف واحدة كالحرب . (٢) ولكي يتم التعريف يجب ان نضيف : وان التجانس فيها ليس طبيعيا ولكنه نتيجة مصالح سلبية كالتعاون على شن الغارات والحروب . اذ ان الوحدات الاجتماعية التي ينطوي عليها النظام القبلي تظل محتفظة باستقلالها الذاتي متمسكة بتقاليدها وعاداتها الخاصة . ففي المجتمع اليوناني القديم كان الاثيني عضوا لاربعة مجتمعات متمايزة : لاسرته ،فعشيرته ،فقبيلته ،فالمدنية التي يعيش فيها . (٣)

---

(١) Giddings . pp: 285-290

(٢) Encyclopaedia Britannica, 14th ed. Art. Tribe

(٣) Fustel de Coulanges, La cité Antique, 25me edit. (Paris, 1919) p. 143

ان هذا السير التطورى التكاملى في الاجتماع البشرى لا يفسر قصة قيام النظام القبلى ، وبالتالى النظام المتحضر الحديث ، بتمامها . فالجماعات البشرية لم تنهج كلها هذا النهج المنظم المستقيم . ففي بعض المجتمعات البشرية قام النظام القبلى بعد الاسرة مباشرة دون ان يجتاز مرحلة نشوء الفخذ ، كما هي الحال عند القبائل الهندية الاميركية الاصلية في المتجمد الشمالي الكبير وكاليفورنيا .(١) واذا كان النظام القبلي نتيجة ظروف خاصة — كما راينا — فيمكننا ان نحدس ان قيام المجتمع المدني الحديث في بيئة لا تتوفر فيها تلك الظروف لا يستلزم ابدا وجود حياة قبلية سابقة لنشوئه .

ولنلاحظ قبل ان نستعرض الحياة السياسية في المجتمع الاولى امرا هاما : وهو ان صلة الرحم لم تكن الناظم الوحيد في المجتمعات القديمة . فعند بعض الاقوام — كممالك افريقيا المتوحشة — كانت — ولا زالت — رابطة الموطن (رابطة الارض) اللحمة الوحيدة في اجتماعها . ثم ان افراد الاسرة القديمة في حالات كثيرة لا يرتبطون جميعا بصلة الرحم كان يتبنى الرجل او يلحق باسرته اشخاصا من نسب مغاير لنسبه .(٢)

<u>الحياة السياسية في المجتمع الاولى</u> :— يعبر روسو عن رايه في هزالة الحياة السياسية بل انعدامها في المجتمع الاولى بعبارته المشهورة " ان الانسان كان حرا اينما وجد ، وانه الان مكبل بالاغلال ." ويزعم هذا الفيلسوف ان الانسان القديم كان يتخبط في فوضى من الاحكام والاوضاع طليقا من كل سلطة حكومية منظمة . على ان الدراسات الحديثة اثبتت انه ليس ثمة شعب من الشعوب الاولية ، مهما امعن في ظلمات التاخر والانحطاط ، عاش بلا شكل من اشكال التنظيم السياسي ، وان حياة الانسان الاولى لم تكن مليئة بالمشاحنات والمنازعات زاخرة بالظلم والتعسف والاستبداد — كما يريد الكثيرون تصويرها . فالتعصب — عدم التسامح — في

---

(١) Davis and Barnes. p: 45

(٢) <u>Encyclopaedia of the Social Sciences,</u> (New York, 1930 - 35)
Art. <u>Social Organization</u> - Robert Lowie

المفهوم الحديث لكلمة لم يكن معروفا في المجتمع القديم . فلم يعاقب المجتمع شخصا لاعتقادات اعتقدها في الله والكون . (١)

واول شكل من اشكال الحكم عرفه المجتمع الاولى هو الشكل الديموقراطى . اذ كان عسيرا على العقلية الاولية ان تفهم وتتقبل حكم الفرد المطلق . وقد لاحظ توزر في اتحاد قبائل الايراكواى ستة امور: رغبة في السلام، وجود هيئة سياسية تهيمن على مقدرات الشعب وتسهر على رعاية مصالحه، مجلس ينتخب بالاجماع ليراقب تصرفات الهيئة، النظر الى الكفاءات في الانتخاب، حق الناخبين باستدعاء ممثليهم متى شاءوا، اللجوء الى استفتاء الشعب في حالة حدوث خلاف بين اعضاء الهيئة الحاكمة . (٢)

ان هذه المظاهر لتوحي الى المرء ان احلام الديموقراطية قد حققها المجتمع القديم وان علاقة الفرد بالدولة، مشكلة المشاكل في النظم السياسية، قد حددها اسلافنا المتوحشون تحديدا كاملا معقولا . ويقرر تشابن بحماس وتاكيد ان الديموقراطية ليست من نتاج الرومان واليونان او الانكلوسكسون، بل هي عريقة في القدم بعيدة الاصول في المجتمعات البشرية . (٣) ولا يسعني ان اثبت راى تشابن دون الاشارة الى الخطل الذى ينطوى عليه هذا الراى . فالديموقراطية تفترض وعيا عند افراد المجتمع وشعورا بتحمل المسؤولية، وهذان امران بعيدان عن العقلية الاولية . ان ديموقراطية المجتمع القديم ديموقراطية اولية - اذ اصح التعبير - فالمساواة التي يتصف بها المجتمع القديم انما هي نتيجة لتاخر المجتمع وانحطاطه، فلا نستطيع ان ندعو نظام الحكم ذلك ديموقراطيا الا تجاوزا وتساهلا . انها ديموقراطية يفرضها صغر المجتمع وبساطة العيش . ومن اليسير، اذن، ان نتصور ان هذا الشكل من الحكم لا يمكن ان يستقر طويلا حين يتناول التعقيد والتشابك حياة الناس ومصالحهم، وان هذه

---

(١) Smith, Lectures .. p. 29

(٢) Alfred M. Tozzer, Social Origins and Social Continuities, (New York, 1925) p. 205

(٣) Francis S. Chapin, An Introduction to the Study of Social Evolution ed., rev., ed. (New York, 1919) p. 242

الميوعة السياسية لا بد ان تنجلي عن نظام حكومي ثابت تحدد فيه حقوقهم وواجباتهم . ولما كانت اللامساواة، او المساواة على اساس التمييز بين العناصر الصالحة المنتجة وبين العناصر الرديئة العقيمة، دعامة كل حياة سياسية صحيحة - فان المجتمعات القديمة اتخذت مقاييس مختلفة لتقرير التفاوت بين افراد المجتمع، كالسن عند الاقوام المتوحشة في استراليا، والثروة عند سكان القسم الشمالي من كاليفورنيا .(١)

الحياة الاقتصادية :- لعل اهم ميزة يختلف بها الانسان الحديث عن سلفه الانسان القديم هي فكرة المستقبل . فالمستقبل لم يكن، بالنسبة الى الانسان القديم، معضلة هامة تقتضى التامل والتفكير وتستدعى الاهتمام والتدبير . لقد كان الانسان يعيش في حاضره ويضع الخطط ويبين النظم وفق مقتضيات بيئته وزمانه . وان الحياة الاقتصادية في المجتمع القديم لتعكس لنا بوضوح هذه النظرة الساذجة المحدود اذ كان هم الانسان القديم في سعيه وكده الحصول على قوته اليومي وسد حاجاته البسيطة المحدودة . وكانت العوامل التي تفعل في تنمية الحياة الاقتصادية وتنشيطها كالاحتكاك بين الناس وتحكمهم بموارد الطبيعة كانت مفقودة آنذاك . وكانت الاكتشافات والاختراعات، وهي العوامل الرئيسية في الانتاج الاقتصادى، بسيطة محدودة اقتصرت على الالات الاولية التي يستعين بها الانسان لتحصيل معاشه اليومي .

غير انه اذا كانت الحياة الاقتصادية في المجتمع القديم على ما ذكرنا من بساطة ومحدودية فاننا لا نستطيع ان ننفي وجود "الافكار الاقتصادية" . اذا ان هذه الافكار تشكل جزءا اساسيا كبيرا من موضوع العقل الاجتماعي فهي تبدا وتنمو باتساع الحياة الاجتماعية ونموها . وهكذا كان الانسان الاولى ما لبث ان اعمل عقله في مشاكل طعامه اليومي تاملا وتفكيرا . واصبحت العلاقة بين اشباع رغباته ومسبباتها الخارجية موضوع اهتمامه الفكرى . فجرب اصنافا متنوعة من الطعام واستعمل اشكالا مختلفة من المأوى والملجأ . وآلت به

---

(١) Encyclopaedia of the Social Sciences, Social Organization - Lowie

اختباراته الشخصية الى التميز بين المنفعة الاولية (initial utility) وبين المنفعة الحدية (marginal utility) . ولعله اهتدى الى تقدير العلاقة بين المنفعة والمجهود ــ الكلفة الذاتية ... ولم يكن مفهوم الثروة عند الانسان القديم يختلف اساسيا عنه عند الانسان الحديث . انما فكرة الثروة آنذاك كانت فكرة عن غزارة الاشياء اللازمة للحياة اليومية لسد الحاجات المباشرة او للحصول على الامتيازات الجتماعية . (١) ولم يعرف المجتمع القديم شيوعية في حياته الاقتصادية : اى ان تكون موارد الطبيعة مشاع للجميع . فالادلة التاريخية والدراسات الاجتماعية تشير الى قيام الملكية الفردية عند الانسان القديم منذ البداية . (٢)

الحياة الدينية : لم يكن ثمة حياة دينية انما كان هنالك مجموعة من الخرافات والمعتقدات الساذجة . وقد رافق نشوء المجتمع البشرى ، وخاصة ابان مرحلة تكون الاسرة الامومية ، قيام الطوطمية . والطوطمية هي الاعتقاد السائد لدى افراد جماعة معينة ان دمهم وسبب وجودهم يتصلان بحيوان او نبات معينين . فاذا كان الطوطم دبا فافراد تلك الجماعة يؤمنون ان الدببة اخوان لهم واقرباء ويمتنعون عن اكل لحومها . ويحرم التزاوج بين معتنقي الطوطم الواحد . وتتالف طقوسهم الدينية من اناشيد وصلوات ورقص في اشكال متعددة مختلفة . وقد تصل بهم عقيدتهم الى تقديس الطوطم او تأليهه . (٣) على ان الطوطمية لم تكن شائعة عند جميع الشعوب الاولية ، بل اقتصرت على شعوب دون اخرى . ولا نستطيع تعليل وجود الطوطمية في شعب دون اخر تعليلا صحيحا معقولا . وكل ما يمكننا قوله هو ان الجماعات البشرية سارت في خطوات غير منظمة واجتازت مراحل تطورية تفاوتت رقيا وشكلا . والعقل الاولى لبساطته ومحدوديته يميل الى تقديس كل ما يجهله او يهابه . كان ينظر الى الشمس تشرق عليه كل يوم فتفيض الحياة نورا

---

(١) Giddings. pp: 239-240

(٢) Tozzer. p. 199

(٣) انظر عن الطوطمية في : Smith, Kinship p. 219

Clément Huart, Histoire des Arabes, 2 vol. (Paris, 1913) p. 25

ونشاطا ثم تغرب عنه فينتشر الظلام ويسود الفتور والركود . فلا يستطيع ان يهتدى الى معرفة مبعث هذا التحول واستكناه اسراره فلا يجد بدا من تقديس الشمس وعبادتها . وهو ينظر الى ظواهر الطبيعة وقد استغلق عليه فهمها واستعصى عليه ادراك اسبابها ،فياخذ العجب بلبه والهلع بقلبه ولا يتمالك الا عبادتها وتاليهها . فتتعدد الالهة لديه وتنشاء الوثنية . وقد قامت في كثير من المجتمعات القديمة كمظهر من مظاهر الوثنية وكنتيجة لنظام الاجتماع السائد في تلك المجتمعات ،عبادة الاسلاف ، اذ ان تمركز السيادة في الزوج ،في بيئة يسود فيها النظام الابوى ،وارتباط مصير الاسرة بربها بعثا في نفوس افراد الاسرة شعور الاحترام والتبجيل نحو رب اسرتهم واستحال هذا الشعور تدريجيا الى نظرة تقديس واجلال . ولا تزال عبادة الاسلاف حية في الصين واليابان وفي كثير من الشعوب المنحطة ،واثارها لا تزال باقية عند معظم الشعوب الراقية .

هذه المعتقدات والخرافات كانت ـ كما قلنا ـ نتيجة جهل الانسان القديم مظاهر الطبيعة وخوفه مما تنطوى عليه هذه المظاهر من اسباب البطش والوقيعة . ولذلك لم تكن هذه المعتقدات اصيلة في حياة الانسان : اى انها لم تكن نظرة فلسفية شاملة في الكون ،ولم يكن الدين عاملا هاما في حياة الانسان القديم واداة اصلاح وتهذيب . فكانت علاقة الاله بعابديه علاقة سطحية اساسها الخوف والرهبة . ولم تتعد مفاهيم لغتهم التعبدية مدلولها الظاهر . فاذا قيل عن الّه ما انه اب وان عابديه اولاده ،فهم يعنون : ان الالّه وعابديه من دم واحد وجنس واحد .(١)

xxxxxxxxxxxxxxxxxx

<u>كيف تطور المجتمع الاولي الى المجتمع المتحضر الحديث؟</u> كانت عملية الانتقال طويلة معقدة تداخلت فيها عوامل شتى وتفاعلت فيها ظروف متباينة حتى اصبح من العسير عرضها وتباين مراحلها . غير اننا نستطيع بلا عناء ان نتصور ان المجتمع الاولى

---

(١) Smith, <u>Lectures</u> .. pp: 29 - 30

كان مقتضيا عليه بالفناء لانه نظام فاسد . وكل نظام فاسد ،كما يقول المنطق الماركسي يحمل اسباب هلاكه في كيانه ويقيم من نفسه على نفسه معولا هداما . فالنظام الاقطاعي كان مهددا بالانقراض منذ تكونه وقيامه . والنظام البورجوازي يتقوض بناؤه ويتصدع كيانه باسباب كامنة فيه . وكذا كان الامر في المجتمع القديم . فان الشرور والمثالب التي ينطوي عليها زعزعت وجوده حين بدا الانسان يتحسسها ويدركها . فعبادة الاسلاف ـ مثلا ـ وحدت القبيلة واشعرتها باهميتها بالنسبة الى القبائل الاخرى . فاثار ذلك الشعور عند القبيلة الشديدة الباس شهوة الفتح والسيطرة وتداعى امامها كيان القبيلة الا وهي شكيمة وتشتتت افراد هذه ينضمون الى قبائل قوية اخرى . وهكذا اخذ المجتمع الاولى ياكل بعضه بعضا حتى تمخض عن المجتمع المدني الحديث . وليس بوسعنا ان نضع حدا فاصلا بين المجتمع الاولي والمجتمع المتحضر لاننا لا نستطيع تحديد الحضارة تحديدا مضبوطا وتعيين اول نشوئها . وكل تعيين لمنشا الحضارة ،كالقول ان الحضارة بدأت ببداية الكتابة ،[1] انما هو وهم عظيم . فالحضارة كلمة مطاطة نستطيع ان نحصر مدلولها بطبيعة وصفة العلاقات المدنية . فالقبائل او الامم التي تمتاز بنظام اجتماعي مستقر وحكومة وقوانين راقية هي متحضرة ،والامم التي تخلو من هذه المميزات غير متحضرة . ونستطيع ان نقيس الحضارة في مجتمع ما بدرجة ما بلغه هذا المجتمع من تقدم في العلوم والفنون . ويشير بلاكمار ـ الى مدلول اوسع للحضارة يشمل شتى اشكال الانتاج الانساني من صنع الفاس الى اختراع الطائرة . فكل قوم من الاقوام ،بحسب هذا التعريف ،متحضر بالنسبة الى شكل من اشكال الانتاج العام .[2] واذ كنا لا نريد ان نتبنى رايا من هذه الاراء المتضاربة عن مفهوم الحضارة فاننا نستطيع ان نتاكد من امرين اثنين : (١) ،ان المجتمع الاولى فاسد متاخر . (٢) ،ان نظم الاجتماع ترتقي وتنحط برقي وانحطاط مدارك الناس ومشاعرهم .

Lewis H. Morgan, Ancient Soceity, (New York 1878) p. 31 (١)

Blackmar p. 6 (٢)

الفـــصل الاول

تاريخ الحياة القبلية في ســــــوريــا

ان الدراسات التي تتناول الوضع القبلي في سوريا انما تتناوله في الاقطار العربية كافة ،اذ انه ليس هنالك قبيلة سورية وقبيلة عراقية وقبيلة حجازية تعكس كل منها خصائص وطبائع متباينة متغايرة ،انما هنالك قبيلة عربية . ولا نحتاج الى اقامة الدليل على صحة عروبة القبائل الضاربة في ارجاء القطر السوري لاننا لا نحتاج الى اقامة الدليل على صحة عروبة الشعب السوري بمجموعه . ولا نقصد بهذه العروبة صفاء الدم ونقاوة العنصر ،فنظرية العرق نظرية خاطئة لا تصلح ان تكون مقياسا لتواصل الناس وتراحمهم او تنافرهم وتنابذهم . لقد عاش في سوريا شعوب كثيرة واختلفت اليها عناصر شتى الاجناس والثقافات . ولكن العنصر العربي كان اعمق هذه العناصر اثرا ،فصهر في بوتقة هاتيك الاقوام والثقافات وطبعها بطابع عربي اصيل . فلم تعد تعرف غير العربية ثقافة ومنزعا ولسانا . وكان من الطبيعي ـ كما يقول الاستاذ كرد علي ـ " ان يدين الشامي بعربية اكثر من ادلا له بفينيقيته وروميته وسريانيته وعبرانيته ." (١)

نريد من هذا الفصل ان نستعرض تاريخ القبائل العربية والعرب بالاجمال في سوريا لنتبين مدى اتصال هذا القطر بالحياة القبلية ويمهد لنا بالتالي دراسة مشاكل النظام القبلي العربي وتفهم خصائصه ووظائفه . وسنلمس خلال هذا العرض التاريخي اهمية اثر القبائل العربية في تاريخ سوريا . ولعل حجر الزاوية في تبيان تاريخ اتصال البلاد السورية بالحياة العربية هو الحقيقة القائلة ان الجزيرة العربية كانت مهد الساميين ـ بالرغم من النظريات المخالفة

---

(١) محمد كرد علي ،خطط الشام (دمشق ،١٩٢٥) جـ ١ . ص ٥٩ .

التي جاء بها بعض المؤرخين المتاخرين بشأن موطن السامية الاول . يفندا الاستاذ حتي هذه النظريات قائلا : ان النظرية القائلة ان بلاد الرافدين هي مهد الساميين لتتناقض مع ناموس التطور الاجتماعي العام ، لانها تفترض انتقال الجماعات البشرية من حياة زراعية ثابتة الى حياة بدوية كلها حل وترحال . اما النظرية الافريقية (القائلة ان افريقيا هي مهد الساميين) فانها تثير اسئلة جديدة دون ان تجيب عليها . ان سطح الجزيرة العربية معظمه صحراوى قاحل ، فلا يستطيع ان يتحمل فيضا كبيرا من السكان . ويتعذر على هذا الفيض الاتجاه نحو الداخل بسبب الصحراء كما يتعذر عليه الاتجاه نحو الخارج بسبب البحر الذى كان في القديم عقبة كاداء في سبيل توسع الجماعات البشرية ومهاجراتها . فلا يبقى والحالة هذه الا طريق واحدة مفتوحة على الساحل الغربي من شبه الجزيرة متجهة الى الشمال . وقد سلكت اول هجرة سامية هذه الطريق لثلاثة الاف وخمسماية عام خلت ، واستقرت في مصر . وبين القرن السادس عشر والقرن الثالث عشر قبل المسيح هاجر العبرانيون الى جنوبي سوريا والاراميون الى شماليها . (١) ثم توالت المهاجرات الاخرى كلما اصاب الجزيرة جفاف او طوفان او زيادة في السكان لا تسمح لها طبيعة الارض بالبقاء ، فتهاجر الى الاقطار المجاورة طلبا للمأوى وانتجاعا للمعاش . (٢)
وكانت سوريا ابدا محط انظار المهاجرين من الجزيرة . وذلك لامرين :

١ـ انعدام الحواجز الجغرافية الخارجية التي تعيق تغلغل الاقوام المهاجرة اليها واستيطانهم اياها . (٣)
٢ـ خصب الاراضي السورية وسهولة العيش فيها بالنسبة الى الاقطار الاخرى .

وفي الاغاني " لما ارسل الله سيل العرم على اهل مأرب قام رائدهم فقال : من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والامر والتامير ، والديباج والحرير ، فليلحق ببصرى والحضير ." (٤)

---

(١) Philip K. Hitti, History of the Arabs, 2ed.ed. (London, 1940) p.10

(٢) Cristina P. Grant, The Syrian Desert, (London, 1937) p: 16

(٣) Edmond Rabbath, Revue Internationale de Sociologie; Esquise sur les populations syriennes (46e année, Sept.-Oct. Paris, 1938)

(٤) محمد كرد علي . ج . ١٠ ص. ٦٢

وقد كانت سوريا في القديم تعتبر جزءا من بلاد العرب . فكانوا يطلقون على الرقعة الممتدة من ضفاف الفرات غربا الى ضفاف النيل اسم جزيرة العرب . ويذكر زيدان ان المصريين القدماء كانوا يعتبرون كل ما هو شرقي بلادهم الى حدود بابل جزيرة العرب . (١) وكان المؤرخون اليونان يقسمون بلاد العرب بحسب طبائع اقاليمها الى ثلاثة اقسام : البادية في الشمال (Arabia Deserta) وهي تمتد من مشارف الشام الى حدود نجد والحجاز، القسم الجنوبي وهو يشمل سائر بلاد الجزيرة وسموها العربية السعيدة (Arabia Felix)، العربية الحجرية (Arabia Petra) نسبة الى بطرا في وادى موسى جنوبي فلسطين . وذكر بطليموس اسماء قبائل عربية عديدة كانت تضرب في ارجاء البادية كقبائل الكواكبين بالقرب من الفرات . ويقول موزل ان بني كوكب الذين يعيشون اليوم مع العنزيين الشرقيين على ضفاف الفرات او مع العنزيين الغربيين في منحنى وادى السرحان انما هم من بقايا تلك القبائل القديمة . (٢)

ان الحيز الذى تشغله اخبار الحياة العربية من صفحات العهد القديم لدليل قوى على توثق اتصال القطر السورى بالعرب وقدمه . فالعهد القديم يصور لنا النبي ابراهيم شيخا بدويا ،وكانت له ولابنه اسحق مشاحنات مع سكان البلاد حول مواضع المياه ،وهي مبعث سعادة البدوى ومهوى احلامه . ويتكرر مشهد الصحراء في العهد القديم في قصص يعقوب وموسى وهم يهبون لاغاثة رعاة الابل والمواشي . ونقرا في ماساة يوسف ان قافلة سيارة من المديانيين ،او الاسماعليين في رواية اخرى التقطته من الجب . (٣)

ولقد سجلت لنا النقوش الاشورية في ايجاز وغموض انتشار العنصر العربي في البلاد السورية . (٤) ففي سنة ٨٥٤ ق.م. انتصر "جنيدب" لملك دمشق ضد سالمانسار الثالث وكان جيشه مؤلفا من الف مقاتل عربي على ظهور ابلهم . وفي

---

(١) جرجي زيدان ،العرب قبل الاسلام (الجزء الاول . مصر،١٩٠٨)ص. ٢٩

(٢) Alois Musil, Arabia Deserta, (New York, 1927) p. 504

(٣) James A. Montgomery, Arabia and the Bible, (Philadelphia, 1934) p. 1-17

(٤) انظر : زيدان . ص.ص. ٩٧ _ ١٠٩

Musil, Deserta, pp: 477-481

Hitti. pp: 37 - 39

عام ٧٣١ قامت حرب بين تغلث فلازر الرابع وملكة عربية انتهت بانتصار الملك الاشوري وفرضه على الملكة المغلوبة جزية سنوية من الابل • وفي عام ٦٨٨ جهز سنحريب حملة كبرى ضد تلخونو ،ملكة العرب كما كانت تسمى ،آلت الى قهر القبائل العربية وتمزيق شملها وسلبها مقتنياتها • ولكن هذه الانكسارات المتعاقبة التي لقيها العرب على يد الاشوريين لم تنل من حرصهم على الحرية والاستقلال • فقد عز على قبائل تلخونو قبول الذل والمهانة وابت الاذعان لسلطان اشور فآثرت التحالف مع البابليين ضد الاشوريين •

نتبين من الاثار الاشورية مدى انتشار القبائل العربية في سوريا وقدم اتصال سوريا بالحياة القبلية • فعلى الحدود المصرية كانت ترابط قبيلة تعرف باسم ادبائيل وكان سكان دومة الجندل العرب يبسطون نفوذهم على الطرق التجارية الى الشمال والشمال الغربي من تدمر وفي السهول الممتدة الى الشمال الغربي من بابل • واستمرت المهاجرات العربية من الجزيرة الى سوريا في اطراد واتساع والنفوذ العربي يمعن تغلغلا وانتشارا الى ان برز في قيام دويلات وامارات مبعثرة هنا وهناك على اديم هذا البلد • واهم تلك الدويلات دولتا الانباط وتدمر • ففي قيام هاتين الدولتين سجل العنصر العربي بوضوح وجوده في تاريخ سوريا وحققت الشخصية العربية بعض ما يجيش في اعماقها من اباء الضيم وثورة على السلطان وتعشق للحرية • فلا مندوحة ،اذن ،من الاتيان ،على ذكر وجيز لها لهاتين الدولتين •

<u>دولة الانباط</u> :(١) كان مقرها في الجنوب الشرقي من فلسطين وتمتد من حدود فلسطين الى خليج العقبة • وكان يسكن هذه المنطقة ،قبل هجرة الانباط اليها في مستهل القرن السادس قبل الميلاد الادوميون • فلما داهمهم الانباط من الشرق اصابهم الوهن والخذلان فخضعوا للفاتحين واندمجوا فيهم • واسس.

---

(١) زيدان • ص ص: ٣٨ ــ ٦٨

Hitti. pp: 67-74

E.S. Bouchier, <u>Syria as a Roman Province</u>, (Oxford, 1916) pp: 44-45

René Dussaud, <u>Les Arabes en Syrie avant l'Islam</u>, (Paris, 1907) pp: 14-15

الانباط في اواخر القرن الخامس قبل الميلاد دولة عربية عزيزة الشان دامت الى اوائل القرن الثاني بعد الميلاد حين استولى عليها الرومان ودخلت في حوزتهم واتخذ الانباط مدينة بطرا (او الرقيم كما يعرفها العرب) عاصمة ملكهم ،
وازدهرت في القرن الرابع قبل الميلاد وظلت مدة اربعة قرون ملتقى القوافل التجارية بين سبأ والبحر الابيض المتوسط . وينوه سترابو باهمية التجارة النبطية في الذهب والفضة والعطورات وزيت السمسم . وبلغت الدولة اوجها في عهد الحارث الثالث اذ دخل الانباط مدينة دمشق بدعوة من اهاليها ورضى . وشملت دولة الانباط في عهد الحارث الرابع شبه جزيرة سينا من العرب وحوران الى حدود العراق من الشرق ووادى القرى من الجنوب . وان النقوش التي عثر عليها المستشرقون في بطرا وصلخد وامتار والوادى لتشهد على درجة ما بلغه الانباط من رقي وازدها - وعلى الرغم من ان لغة هذه النقوش هي الارامية فليس ثمة شك في عربية الانباط . فقد كانت العربية لغة تخاطبهم ، ولكنهم اضطروا الى استعمال الارامية في نقوشهم وادابهم لفقر اللغة العربية آنئذ وشيوع الارامية في هذه البلاد يومئذ . ان الاخطاء اللغوية في كتاباتهم الارامية وكثرة المصطلحات العربية المستعملة تشير الى عدم اتقانهم الارامية واصطناعهم اياها اصطناعا حيث يكونون مضطرين الى ذلك . وقد اجمع المؤرخون اليونان الذين عاصروهم على انهم عرب . وكان يوزيفوس (في القرن الاول للميلاد) يتكلم عن بلاد العرب انها دولة الانباط . زد على ذلك ان اسماء ملوكهم وامرائهم عربية كالحارث وعبادة ومالك وجميلة . وللاعلام - كما يقول زيدان - دخل كبير في بيان اصول الامم . واخذ الانباط بالارامية تدريجيا وطغت اساليب الحياة الرومانية على عروبتهم - حتى اذا ما جاء الاسلام نجد انهم فقدوا صلتهم بالعرب . يذكر الواقدى ان خالد بن سعيد (في اوائل الفتح الاسلامي) لقى عددا من الانباط فسالهم عن حالهم فقالوا : نحن من اهل البقيع ... وقد عظم علينا دخول العرب الى بلادنا وقد فزعنا منهم فزعا عظيما . ودلوهم على الطريق الذى سلكه الرومان . قال لهم اسلموا فقالوا له : ما نعرف الا دين الصليب ونحن فلاحون . واكتفى منهم بان ساروا معه يدلـــونه على الطريق .(١)

---

(١) محمد بن عمر الواقدى ، فتوح الشام . جزءان معا (مصر ، ١٢٧٨هـ) ج١ ، ص١٩٠

ويرجح الكثيران الحويطات المتفرقين في مصر وسوريا وشرقي الاردن من سلالة الانباط . (١)

<u>دولة تدمر</u>(٢) : اكتسبت تدمر منذ اقدم الازمان اهمية كبرى في العلاقات التجارية بين الشام والعراق ، وذلك لمركزها الجغرافي الممتاز الذى جعل منها واحة في الصحراء لا بد للقوفل التجارية المسافرة من الشام الى العراق ذهابا وايابا من ان تمر بها حيث تحط رحالها وتنفض عنها وعثاء السفر ومتاعب الصحراء . واقترنت اهميتها التجارية باهمية عسكرية عرفها الرومان بالنسبة الى طريقهم المنبعث من دمشق الى الفرات مارا بها .

لا يعين التاريخ بالضبط بدء قيام دولة تدمر ولا تاريخ سيطرة العرب عليها . انما نعرف ان دولة تدمر لم تزدهر وتاخذ باسباب الرقي والنهوض الا بعد سقوط بطرا في ايدى الرومان في اوائل القرن الثاني للميلاد . فقد تحولت طرق التجارة من بطرا الى تدمر واخذت تتسع تجارتها فامتدت شرقا الى الصين . وبينا كان النزاع محتدما بين الروم والساسانيين عام ٢٦٢ اهتبل اذينة ، رئيس تدمر ، الفرصة وحالف الرومان على ان يوكلوا اليه ادارة تدمر وينشئ فيها دولة مستقلة . وخرج على الفرس في حشد من المقاتلين العرب وابلى بلاء حسنا فاسترجع المنطقة التي كان سابور قد فتحها من الجزيرة واخضع نصيبين وحاصر المدائن مرتين . وغنم عتادا واسرى بعث بهم الى غالينوس الروماني . فبهر ذلك الامبراطور وجعله نائبه على " الشرق " كله . ولكنه قتل غدرا في حمص . وتسلمت زنوبيا مقاليد الامور في مملكة تدمر ، وكانت وسيمة الطلعة قوية البدن ذات عقل حصيف وراى سديد وكانت تفيض حزما وطموحا . وكانت اذا استعرضت جندها في ميدان قصرها مرت امام الصفوف فوق جوادها وعليها لباس الحرب تحثهم على القتال وتبث فيهم روح الاقدام والثبات ، فاذا رآها الناس حسبوها الهة عظيمة . وقد حدا بها طموحها الى توسيع مملكتها فاخضعت مصر وجزءا

---

(١) Hitti. p. 70

(٢) زيدان . ص ص ٨٣ـ ٩٣

Hitti. pp: 74-78

كبيرا من آسيا الصغرى • وفي سنة ٢٦٥ احتلت الاسكندرية العاصمة الثانية للامبراطورية ونصبت ابنها الاصغر ملكا عليها • القت هذه الانتصارات الرعب في نفوس الرومان ،اذ كان نفوذهم في هذه البلاد يتقلص ويافل امام زحف التدمريين السريع • فحشد اورليان الجيوش ضد التدمريين وقهرهم ودخل تدمر سنة ٢٧٢م • وعز على زنوبيا الاستسلام فحاولت الفرار ولكنها اسرت واقتيدت الى اورليان بسلاسل ذهبية •

وهكذا انطفا سراج دولة عربية كان لها شان كبير في تاريخ القطر السورى • ولكن سراج الحياة العربية في سوريا ظل متالقا كلما ناله فتور وذبول امدته الجزيرة العربية بما يبقى على اشعاعه وتالقه ،حتى اذا مضت قرون اخرى شاهدنا هنا قيام امارة الغساسنة المشهورة •

امارة الغساسنة • [1] نزل الغساسنة مشارف الشام وكان فيها الضجاعمة من قضاعة فغلبوهم على امرهم وانشأوا لانفسهم دولة تحت رعاية الروم في ما هو الان البلقاء وحوران عرفت بدولة الغساسنة • ويذكر ابن خلدون انهم تعاقدوا مع القيصر الروماني " على انه اذا دهمهم امر من العرب امدهم باربعين الفا من الروم وان دهمه امر امدته غسان بعشرين الفا " [2] واتخذوا بصرى عاصمة ملكهم وقاعدة توسعهم وتحضرت دولتهم على مرور الزمن فضربوا النقود وشيدوا القصور والحصون • وقد اختلف المؤرخون في تاريخ منشأ دولة الغساسنة فنولدكه يستدل من تاريخ بروكوبيوس ان قيام هذه الدولة كان سنة ٥٢٩ حين رفع الامبراطور يوستينيان الحارث بن جبلة الى رتبة ملك وبسط هذا سيطرته على قبائل عربية كبيرة ،وكان يبغى الامبراطور من عمله هذا ان يقيم خصما قويا في وجه دولة المناذرة • غير ان اعتراف يوستينيان بنفوذ الحارث ـ كما يلاحظ زيدان ـ وتنصيبه اياه ملكا لا يعني ان امارة الغساسنة بدأت في هذا التاريخ • فقد قضى الغسانيون

---

(١) زيدان • ص: ١٨٤ ـ ١٩٧
تيودور نولدكه ،امراء غسان ـ تعريب بندلي جوزى وقسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٣)
De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammad, (London, 1927) pp: 163-167
(٢) ابن خلدون ،كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر (مصر • بولا ق ،١٢٨٤هـ)

زمنا طويلا في ضواحي الشام يتوارثون الامارة والروم لا يعرفون عنهم شيئا او لا يحفلون بامرهم كثيرا لانهم لم يحتاجوا بعد الى مناصرتهم وولائهم . وقد عدد حمزة الاصفهاني في كتابه سني الملوك اثنين وثلاثين ملكا وجعل تاريخ دولتهم يمتد نحو ستة قرون ، اي من اوائل القرن الاول للميلاد حتى ظهور الاسلام . اما نولدكه فلا يرى ان مدة حكم الغسانيين تتجاوز القرن وبعض القرن وان عدد ملوكهم يتجاوز العشرة . ولا نريد ان نتعرض الى هذا الاختلاف ولا نجتهد في التحقق من صحة احد الرايين في قليل او كثير . انما يعنينا الاشارة الى المهمة الخطيرة التي كانت تضطلع بها امارة الغساسنة في سوريا . ففي اواخر العقد الثالث من القرن السادس قام نزاع طويل مستحر بين المنذر امير الحيرة والحارث امير غسان على الارض المسماة سترانا (وهي — كما يرجح نولدكه — الارض الممتدة على جانبي الطريق الحربية من دمشق الى ما بعد تدمر حتى مدينة سرجيوس) . وكان سبب الخلاف تنازعهما على سيادة القبائل النازلة في تلك الارض . وانتصر كسرى لعامله واوعز اليه ان يوغل في سوريا ويعمل في الغسانيين نهبا وقتلا . هب القيصر لنصرة الحارث ووقعت الواقعة بين الروم والغسانيين من جهة وبين الفرس والمناذرة من جهة اخرى ، وقد انتهت بهزيمة الحارث وحلفائه الروم . ثم توالت الحروب بين الغساسنة والمناذرة مدفوعين من قبل اياد اجنبية . وبلغ الحارث بن جبلة شأوا عظيما في سياسة الدولة الرومانية ويحدثنا نولدكه انه لما زار الحارث القسطنطينية عام ٥٦٣ احدث تاثيرا كبيرا في عاصمة البيزنطيين وبالاخص على يوستينيوس ولد العهد يومئذ . " فلما اصيب يوستينيوس ~~بالخرف~~ بالخرف بعد تسنمه العرش ببضع سنين ، كان اهل البلاط يخيفونه بالحارث العربي كلما بدا منه عصيان وعربدة وينتهرونه بقولهم : تعقل ! والا دعونا اليك الحارث بن جبلة . فيكف ويهدا " (سوريا : ٢٠ — ٢١) وقد ازدهرت امارة الغسانيين قبل الاسلام ازدهارا عظيما فشيدوا القصور واصلحوا الصهاريج وبنوا القناطر والقلاع . وينسبون اليهم بناء صرح الغدير والقصر الابيض والقلعة الزرقاء والقصر المتن وقصر السويداء وغيرها . وبلغت اخبار حضارتهم مسامع العرب في

ارجاء دنياهم فتناقل الناس قصصهم وتغنى الشعراء بمجدهم وترفهم وزادهم حسان بن ثابت، شاعر الرسول، وقال فيهم قصيدته المشهورة :

لله در عصابة نادمتهم   يوما بجلق في الزمان الاول
يمشون في الحلل المضاعف وشيها   مشى الجمال الى الجمال البزل
اولاد جفنة حول قبر ابيهم   قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة احسابهم   شم الانوف من الطراز الاول

وحين اوعز القيصر الروماني الى عامله على سوريا بالقبض على المنذر بن الحارث وعمد الى قطع الاعانة السنوية التي يقدمها لإسرته اثار ذلك حفيظة الغسانيين وشقوا عصى الطاعة لقيادة ابناء المنذر الاربعة واعملوا في البلاد غزوا وسلبا فاضطرب حبل الامن وجهز الرومان جيشا كبيرا لكبح جماح الثائرين. وتمكن القائد البيزنطي بدهائه ومكره من القبض على اكبر ابناء المنذر. ولكن الحالة ظلت مضطربة حتى اضطر الروم الى اقامة عامل غساني جديد مكان المنذر. وظلت امارة الغساسنة قائمة حتى الفتح الاسلامي. وقد اراد الروم ان يستعينوا بحلفائهم الغسانيين في صد العرب كما سنرى.

والى جانب الغسانيين كانت قبائل عربية كثيرة تعيش في اطراف دمشق وحوران وغيرهما من المدن السورية وفي الصحراء السورية حتى الفرات (١) فكانت تنوخ، اكبر فروع قضاعة القحطانية، تسكن سوريا الشمالية وكانت قبيلة كلب تنزل دومة الجندل وتبوك واطراف الشام، وبنو ربيعة من طيء، يسكنون صحراء الشام وبنو صخر من جذام، احد احياء طيء، يسكنون الكرك وحوران. وقد سجل تاريخ الفتح الاسلامي لهذه البلاد اسماء قبائل عربية كثيرة ومواطنها وسعة انتشارها ومدى نفوذها. فكانت على الضفة اليسرى من الفرات تحصينات رومانية وفارسية وعربية اصطدمت بها جيوش خالد الفاتحة مرارا (٢)

---

(١) عن اسماء القبائل ارجع الى : القلقشندي، صبح الاعشى (دار الكتب المصرية ١٩٢٢) ج١ ص ص: ٣١٣ — ٣٦٠

Encyclopaedia of Islam (Leiden, 1913) art. Arabia, Ethnology

(٢) Alois Musil, The Middle Euphrates, (New York, 1927) p. 319

هذه نظرة مجملة عن تاريخ العرب في سوريا قبل الاسلام نتبين منها ان نفوذ العرب في سوريا سبق الفتح الاسلامي بقرون طويلة وان العرب لعبوا دورا خطيرا في سياسة هذا البلد وانه قامت لهم فيه دول وامارات كثيرة مستقلة حينا وخاضعة لنفوذ دولة اجنبية احيانا اخرى. فالعرب في سوريا في القديم عنصر هام من عناصر ذلك الخليط من الاقوام والثقافات واللغات التي كانت تتنازع السيادة على هذا القطر. غير ان التباين بين تلك العناصر لم يكن كبيرا بحيث يتعذر عليها التعاون حينا والاتحاد احيانا اخرى. ويلاحظ بوشيه ان الارتباط بين الشعوب الاربعة التي كانت تؤلف سكان البلاد الاصليين ابان الفتح الروماني (وهم الاراميون والفينيقيون واليهود والعرب) امتن واعمق من ارتباط الاوروبيين بعضهم مع بعض [1] . ولكن العنصر العربي يغاير العناصر الثلاثة الاخرى في امور ثلاثة :

١ـ ان العنصر العربي ، دون العناصر الاخرى ، كان يجعل البلاد على اتصال ودراية مستمرتين بالحياة القبلية. لقد اخذ العرب في سوريا باسباب الحضارة فاستوطنوا المدن وفلحوا الاراضي وشيدوا القلاع والقصور. ولكن الكثرة المطلقة كانت لا تزال تعيش حياة قبلية عريقة في بداوتها حريصة على سجاياها وتقاليدها. يدلنا ذلك ان الوضع القبلي بعيد العهد في تاريخ سوريا وانه كان منتوجا عربيا.

٢ـ ان العرب كانوا اقوى الشعوب الاخرى شكيمة واشدها حزما ومضاء، وذلك ناتج عن الامر الاول اى عن نوع حياتهم. فامتازوا باساليب القتال من كر وفر وغزو وسلب واكتشف الرومان فيهم هذه الموهبة فاستغلوها وجنوا منها فوائد جليلة. نظموا القبائل العربية التي تعيش تحت رعايتهم وامدوها بالمال والسلاح واستعملوها ضد الفرس، كما كان الفرس يستعملون عرب الحيرة ضد الرومان. فكان العرب في كلا الحالين اداة في يد الاجنبي يستعملها تحقيقا لاهوائه ومطامحه [2] غير ان مساعدتهم الاجنبي لم تكن، في عرفهم، علامة ذل وخنوع. وقد كانوا حريصين على استقلالهم الذاتي وضنينين بحريتهم، يساعدون الاجنبي لقاء اعترافه لهم باستقلالهم القبلي ـ اذا صح التعبير. ولم يتجاوز مفهوم الوطنية والكرامة عندهم نطاق القبيلة.

---

(١) Bouchier. pp: 6-7. p: 275

(٢) David S. Margoliouth, Muhammad and the rise of Islam (N.Y.1905 p.33-34
BOUchier. p. 41

٣٠ كان العرب يقومون بمهمة حراسة القوافل التجارية وتسهيل حركة التبادل الاقتصادي بين سوريا من جهة وبين الاقطار المجاورة من جهة اخرى ٠ وكانت القوافل التجارية تتخذ من مواضع المياه تارة او من منازل البدو في الصحراء تارة اخرى ٠محاط تستريح فيها فترة لتستانف السير من جديد٠ وقد ذكر ياقوت اسماء بعض المدن التي تلتقي فيها القوافل التجارية او تحط فيها الرحال كمدينة الرضاب حيث كان تعسكر فيها تغلب وهي في موضع الرصافة التي بناها هشام ابن عبد الملك،وديرالرمان وقد كانت "مدينة كبيرة ذات اسواق للبادية بين الرقة والخابور تنزلها القوافل القاصدة من العراق الى الشام [١] ويرجح موزل انها مدينة دير الزور الحديثة،على الرغم من ان ياقوت ذكرها بصورة يفهم منها انها على الجانب الايسر من الفرات٠ ولكن ياقوت، على قول موزل ، كثيرا ما يخطئ في تعيين الموقع٠ فضلا عن انه لا توجد آثار مدينة كبيرة بين الرقة والخابور [٢] ٠

واخيرا لا بد من الاشارة الى الفائدة التي جناها العرب من احتكاكهم بالرومان واساليب الحياة الرومانية الراقية٠ فقد استهوت حياة المدن بعضهم فآثروا ترف العيش على شظفه واستوطنوا المدن والقرى وتعلموا النظام والطاعة٠ ويرجح بوشيه ان السرعة والنظام اللذين اتصفت بهما الفتوحات الاسلامية انما كانا ــ الى حد ما ــ نتيجة اتصال العرب باساليب القتال الرومانية٠ [٣].

القبائل العربية منذ الفتح الاسلامي حتى الحرب العالمية الاولى

ان كل حركة توسعية او رسالة عقيدية تنبعث من الجزيرة العربية لا بد لها من الاتجاه نحو بلاد الشام٠ وذلك بحكم اتصال هذه البلاد

---

(١) ياقوت الحموي،معجم البلدان ٠ مجلدان (ليبزك، ١٨٦٦ ــ ١٨٧٠) ص: ٧٨٩ و ٦٦٢

(٢) Musil, The Middle. p: 3

(٣) Bouchier p: 6, p: 46

بالجزيرة -كما راينا - اتصالا وثيقا وانتشار القبائل العربية في اصقاعها . وما الفتح الاسلامي ،الى كونه وسيلة لنشر العقيدة ،الا مهاجرة عربية كالمهاجرات التي كانت تحدث قبل الاسلام من وقت الى اخر . فكان طبيعيا ،اذن ،ان يفكر صاحب الدعوة محمد بن عبد الله ،في بلاد الشام وامكانية نشر رسالته فيها . فخرجت الرسل الى ملوك البلدان المتاخمة تدعوهم الى الاسلام . وكان دحية بن خليفة الكلبي من نصيب قيصر الروم وشجاع بن وهب من نصيب جبلة بن الايهم الغساني .(١) ولعل المقصود من ايفاد رسول الى عرب سوريا ان يذكي في نفوسهم شعور الاباء والانفة نحو الاجنبي والعطف والرضى نحو رسالة لما تصلهم به من وشائج الدم والقربى . ولعله اراد ان يسير الى الشام في رسالته في العام الخامس للهجرة حين قصد دومة الجندل في جفنة من انصاره المخلصين .(٢) ثم عاد دون بلوغها لان سعيه في نشر رسالته في بني قومه الاقربين كان ياخذ عليه وقته ويصرفه عن اى عمل اخر . فلما خلف ابو بكر محمدا ودانت الجزيرة بالاسلام وجه جيوشه لغزو الشام بغية نشر الدعوة في اهاليها وصيانة للاسلام في الجزيرة من خطر البيزنطيين . وكانت القبائل التي استنفرها ابو بكر تقبل على الانضواء تحت راية الجهاد بحماس واندفاع شديدين طمعا في نعيم الشام عند البعض وحبا في الاستشهاد في سبيل الله عند البعض الاخر او رغبة في نعيم الدنيا وثواب الاخرة معا . ويذكر الواقدى انه حين استشار ابو عبيدة اصحابه في قتال الروم قبل وقعة اليرموك وهل يقاتل الجيوش الجرارة ام لا قال له قيس بن هبيرة المرادى : لا ردنا الله الى اهلنا سالمين ان خرجنا من الشام وكيف ندع هذه الانهار المتفجرة والزروع والاعناب والذهب والفضة والديباج ونرجع الى قحط الحجاز وجدبه واكل خبز الشعير ولباس الصوف ونحن في مثل هذا العيش ~~الرغب~~ الرغيد فان قتلنا فالجنة موعدنا ونكون في نعيم لا يشبهه نعيم الدنيا ..(٣)

---

(١) ابن هشام ،السيرة (غوتنغن ووستنفلد ،١٨٦٠) ص٩٧١

(٢) السيرة . ص. ٦٦٨

(٣) الواقدى ج١ . ص: ١٥٤

لا ريب ان ابا بكر وقادة المسلمين كانوا ينظرون الى عرب سوريا نظرة خاصة ،يمنون انفسهم بولاء القبائل العربية السورية للاسلام ومناصرتهم اياهم في محاربتهم الروم فتقوم هذه القبائل بمهمة الطابور الخامس في ثورتها على الروم وتسهيل مهمة ابناء جنسهم الفاتحين . ولكن وقائع الفتوحات تسجل غير هذا . اذ ان القبائل العربية في سوريا لم تتردد في اعلان ولائها للروم وتقيدها تقيدا تاما بالواجبات العسكرية التي اقتضاها تحالفهم السياسي مع الامبراطورية البيزنطية واصبحوا في طليعة الجيوش المناهضة للفتح الاسلامي . (١)

هب الروم لملاقاة العرب وحشدوا الجيوش واعدوا للقتال . وكان في المقدمة جيش من العرب المتنصرة جعلته الروايات ستين الف مقاتل بقيادة جبلة بن الايهم ملك الغساسنة (٢) وكان هذا الموقف الشاذ الذى اتخذه عرب سوريا قد اثار حيرة ودهشة في نفوس المسلمين . وحاول قادة المسلمين واولو الراى منهم ان يثنوا بني عمهم عن عزمهم ويستميلوهم الى جانبهم . فدعا خالد بن الوليد بنفر من اصحابه وقال لهم : هؤلاء العرب المتنصرة يريدون قتالكم وهم بنو عمكم فاخرجوا اليهم وخاطبوهم واجتهدوا في ردهم عن محاربتكم فلما خرجوا اليهم نادى جابر بن عبد الله : يا معاشر العرب من لخم وغسان وجذام ! اننا بنو عمكم ولا نشتهى قتالكم فهلموا الى الاسلام . فابى جبلة ذلك . فناشده جابر ان يعتزل عن القتال . فقال جبلة : اخشى ان يكتب النصر للرومان وافقد مركزى (٣) وهكذا اضطر المسلمون الى محاربة ابناء عمهم .

بيد ان هذا الموقف المناوئ الذى وقفته القبائل العربية في سوريا حيال الفتح الاسلامي لا يعبر عن شعورها الحقيقي . لقد كان موقفا سياسيا لجأ اليه امراء غسان حرصا على عروشهم ونفوذهم ورغبة عن مبدأ المساواة الذى ينطوى عليه الاسلام اما عامة العرب السوريين ،نصارى كانوا ام وثنيين ،

Henri Lammens, L'ancienne Frontiere entre la Syrie et le Hidjaz(١) (Le Caire ?) pp: 91-92

(٢) الواقدى ص ١٥٦

(٣) الواقدى ص ١٦٠ _ ١٦١

فقد استقبلوا الفتح بارتياح وترحيب ، يخفيهما تارة ولاء امرائهم الشكلي لاسيادهم الرومان، ويظهران تارة اخرى في المساعدة القبلية للفاتحين حين يناوئ امراؤهم الدولة الرومانية، كما حدث في استيلاء المسلمين على دومة الجندل . اذ سار اليها عبد الرحمن بن عوف في سبعماية مقاتل لقوا ترحيب قبيلة كلب المسيحية، ففتحت لهم المدينة مشترطة الاحتفاظ بدينها (١) وكانت آصرة القربى ابدا ظاهرة عند الفريقين المتحاربين من العرب . فكان جابر وجبلة يتناديان يا ابن العم . وقد ناشد الاول الثاني ان يكف عن القتال فلا يتحارب العرب "وتكون الوقعة بغيرك احب الينا من الوقعة بك وبمن معك" (٢) وكان الرومان شاعرين بما يجمع بين العرب من وشائج الدم واللغة، فكان هرقل يخاطب العرب المتنصرة بقوله : كونوا في المقدمة، فان هلاك كل شيء بجنسه والحديد لا يقطعه الا الحديد . ولما آذنت المعركة الحاسمة بين المسلمين والرومان بالابتداء اشار الروم على زعيمهم ان يبعث للمسلمين ببعض العرب المتنصرة ليخوفوهم من كثرة الروم ويلقوا في نفوسهم الرعب والهوان "لان العرب يميل بعضهم الى بعض" (٣) ثم ان موقف العرب المتنصرة ما لبث ان تغير فانقلبوا على الروم ودخلت قبائل غسان ولخم وجذام وغيرها مع المسلمين (٤) ويرى الاستاذ حتى ان هذا الترحيب الذي لقاه الفتح الاسلامي لم يقتصر على العرب فحسب بل تعداه الى سكان البلاد عامة، فكان الفتح الاسلامي مبعث انتعاش وازدهار للشرق الادنى (٥).

جبل البدوي على حب حريته وحرصه على تقاليده القبلية، لانه لا يملك سوى حريته، كما يقول غوستاف لوبون (٦) واقترن عنده مفهوم الحرية بالعيش في الصحراء وترتب على هذا الاقتران نفوره من مسكن المدن واحتقاره اهلها . وجاء الاسلام يشجب هذه التقاليد ويدعو العرب الى نبذ العصبية للقبيلة والعصبية للجنس .

---

(١) Hitti. p: 150

(٢) الواقدي ص ص ١٦٠ - ١٦١

(٣) الواقدي ص ص ١٥٧ -

(٤) Hitti. p: 143

(٥) ابو اسماعيل محمد الازدي البصري فتوح الشام . صححه وليم ناسوليس الايرلندي (كلكته ١٨٥٤) ص: ٩٦

(٦) Gustave Lebon, La civilization des Arabes, (Paris, 1884) p: 41

وبذل زعماء المسلمين جهودا جبارة في سبيل محو العصبية • ولكن هذه الجهود لم تستطع ان تستاصل شافتها وتزيل آثارها من النفوس • فلما خرج العرب من جزيرتهم فاتحين كان الكثير منهم لا يزالون ممعنين في بداوتهم متمسكين بتقاليدهم القبلية ينظرون الى الشعوب الاجنبية نظرة احتقار واستخفاف بحكم عصبيتهم الجنسية ويتناحرون ويتقاتلون فيما بينهم بحكم عصبيتهم القبلية • تجلت عصبيتهم الجنسية ابان الحكم الاموي ،اذ نلمس تمايزا واضحا في المجتمع الاسلامي بين العرب وغير العرب في طراز حياة كل من الطرفين ونظرته نحو الاخر على الرغم من مساواة الاسلام لهم جميعا واعتباره والاستمساك بعرى الدين المعيار الوحيد للتفاضل والتفاوت • فلم يكن يرى ،مثلا ،عربي سائرا مع مولى ،خاصة في المدن التي انشئت من مخيمات الجنود • وكان يسمى المولى باسمه اما العربي فيكنى بكنيته او ابو او ابن • (١) غير ان هذه النظرة الجائرة التي نظرها العرب نحو اخوانهم المسلمين غير العرب لم تكن تنطوي كما يزعم فان فلوتن على اي انتقاص من حقوق هؤلاء التي منحها اياهم الاسلام • يتهم فان فلوتن الاسلام بانه انتشر بحد السيف وعن طريق الانذار والوعيد وان القبائل رضيت بالاسلام ~~بكانه~~ دينا لملائمته نزعتها الحربية ،فجدت بنشره بدافع وطني اكثر منه ديني ،فكان العرب لا يعترفون لغيرهم بشيء من الحقوق التي يتمتعون هم بها • ويستند فلوتن في رايه هذا الى ان العرب كان محرما عليهم ملكية الارض وانهم " كانوا يعيشون من العطاء (وهو اجر تدفعه اليهم الحكومة) والمعادن (وهي ضريبة تفرض عينا على البلاد المفتوحة) ثم الغنائم والاسلاب التي كان لا ينضب معينها ما دامت هناك بلاد تفتح واقاليم تستغل •••• وهكذا يصور لنا الاحتلال العربي بوجه عام شعبا يعيش على حساب شعب آخر • (٢)

ولسنا في معرض مناقشة هذا الرأي وبيان مبلغ ما ينطوي عليه من خطأ وتضليل انما يجدر بنا ان نلاحظ ان تحريم العرب من امتلاك الاراضي لم يكن سوى

---

(١) Reuben Levy, An Introduction to the Study of the Sociology of Islam (London, 1930-33) pp: 83-84

(٢) فان فلوتن ،السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم (مصر، ١٩٣٤ (ص ص: ٥ _ ٢٠

تدبير سياسي حربي موقت لجأت اليه سياسة عمر بن الخطاب • فقد خشي هذا الخليفة الحكيم ان تاخذ اسباب الترف والراحة التي تزخر بها البلدان المفتوحة بنفوس العرب فتشغلهم عن رسالتهم التي هبوا لها ناشرين وعنها منافحين • فمنع الجنود من استملاك الاراضي ، لان ملكية الاراضي مدعاة للخمول والتهاون • اما القبائل النازحة من الجزيرة الى البلاد المفتوحة فقد سهل لها الخلفاء استيطان المدن والقرى والدساكر، والاخذ باسباب الرقي والحضارة • وقد بدأ سياسة التمصير هذه عمر نفسه فبنى مدنا في اصقاع الدولة الاسلامية لتستوطنها القبائل المهاجرة كالكوفة والبصرة والفسطاط • ولكن العرب كانوا لا يزالون يانفون من الاقامة في المدن ويتطلعون الى صحرائهم بشوق وحنين • ففي القرن الاول للهجرة عاف كثير من اشراف القبائل حياة المدن وعادوا الى الصحراء .(١)

وجاء في الاغاني انه " دخل النابغة الجعدي على عثمان (رض) فقال استودعك الله يا امير المؤمنين • قال واين تريد يا ابا ليلى ؟ قال الحق بابلي فاشرب من البانها فاني منكر لنفسي • فقال : اتعربا بعهد الهجرة يا ابا ليلى ! اما علمت ان ذلك مكروه ؟ قال ما علمته وما كنت لاخرج حتى اعلمك • فاذن له • "(٢)

وكانت البادية طيلة حكم الامويين متنزها للخلفاء والامراء ومدرسة لاولادهم • فاذا ما حل الربيع من كل عام هرع اليها سادات العرب يستمتعون بسحرها ويروحون عن انفسهم بعض ما علاها من سآمة وخمول • جاء في الطبري ان الخلفاء ينتبذون ويهربون من الطاعة فينزلون البرية خارجا عن الناس • (٣) وقد قضى يزيد بن معاوية معظم طفولته في براري تدمر بين اخواله بني كلب حيث تعلم الفنون والرياضة • (٤) ~~ولزم~~ وحرص عبد الملك على عدم ارساله ابنه الوليد الى الصحراء ليحافظ على صفاء اللغة ويكتسب عادات العرب • (٥) وقد بنى الخلفاء الامويون

---

(١) Henri Lammens, La Badia et le Hira sous les Omaiyades (??) pp: 38-39

(٢) الاغاني • جـ ٤ ، ص : ١٢٠ •

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك (ليدن ، ١٨٧٩) جـ ٢ ص : ٧٣٧ ـ ٧٣٨

(٤) Henri Lammens, Etudes sur le régne du Calife Omaiyade 1er (Beyrouth, 1908) p: 326

(٥) Lammens, La Badia, p: 97

مستراحات لهم في بادية الشام يؤمونها من حين لاخر وسموها "البوادي" .(١)

وحمل العرب معهم العصبية القبلية حيثما حلوا وانى ساروا . وظلوا محتفظين بانفتهم وكبريائهم نحو اهل الحضر اجيالا طويلة . يروى ان قرواشا صاحب الموصل (من الدولة العقيلية) قال مرة " ما في رقبتي غير خمسة او ستة من البادية قتلتهم من البادية ،واما الحاضرة فلا يعبأ الله بهم " (٢) واصبحت عصبيتهم هذه مثار نزاع مستمر عنيف بين القبائل العربية صدع كيان الدولة الاموية واضعف الدول المتعاقبة الاخرى . حكى ابن ابي الحديد (في شرحه ج ٣ ص ٤٧٦) " ان اهل الكوفة في اخر عهد علي كانوا قبائل ،فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة اخرى ،فينادي باسم قبيلته : يا للنخع ،يا لكندة ،فيتألف عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون : يا لتميم ويا لربيعة ويقبلون الى ذلك الصائح فيضربونه ،فيمضي الى قبيلته فيستصرخها ،فتسل السيوف وتثور الفتنة ." (٣)

لكي نفهم مدى النزاع بين القبائل العربية في ديار الشام واسبابه ينبغي ان نشير الى العداء المستحكم بين عرب الشمال وعرب الجنوب او العدنانيين والقحطانيين يقسم العرب ،بحسب العرف الشائع لديهم ،الى شعبين كبيرين : قحطان وعدنان . وتشعر كل قبيلة عربية بعصبية قحطانية او عصبية عدنانية لانتمائها الى احد هذين الشعبين . ان هذا التقسيم لا يقوم على اساس علمي صحيح ،اذ يتبين لدى التحقيق مبلغ الخلط والاضطراب في اقوال نسابي العرب . (٤) فقبائل قضاعة حسب النظرية المقبولة قحطانية . (٥) وتبدو هذه الصلة معقولة اذا عرفنا

---

(١) Hitti. p: 195

(٢) احمد امين ،ظهور الاسلام الجزء الاول (القاهرة ،١٩٤٥) ص ص : ٥٧ ــ ٥٨

(٣) احمد امين ،فجر الاسلام الطبعة الخامسة (القاهرة ،١٩٤٥) ص ص : ٧٩ ــ ٨٠

(٤) انظر : اوليري عن تقسيم العرب الى قحطان وعدنان . ص ص : ١٥ ــ ١٦

(٥) انظر : صبح الاعشى ج ١ . ص : ٣١٥

ان النزاع كان قائما بين القيسيين ،وهم فوع من نزار او معد ،وبين الكلبيين ، وهم فوع من قضاعة . ولكن جاء في الاغاني ان النسابين كانوا مختلفين في قضاعة ، فمنهم من يزعم ان قضاعة من معد وهو اخو نزار بن معد لابيه ومنهم من يزعم انهم من حمير . وقد انتسب جميل بثينة معديا :

انا جميل في السنام من معد في الاسرة الحصداء والعيص الاشد

وقال راجز من قضاعة ينسبهم الى حمير :

قضاعة الا ترون خير معشر قضاعة بن مالك بن حمير . (١)

وكان جرير ،وهو من كلب ،يفاخر بآل نزار فتكون قضاعة من معد :

انا ابن الثرى ادعو قضاعة ناصرى ... وآل نزار ما اعز واكثرا
عديدا معديا له ثروة الحصى وعزا قضاعيا وعزا تنزرا
نزار الى كلب وكلب اليهم احق وادنى من صداء وحميرا (٢)

واشار ابن خلدون الى تضارب الاقوال حول قضاعة . " قيل انها حمير قاله ابن اسحق والكلبي وطائفة . وقال زهير قضاعية واختها مضرية فجعلهما اخوين وقال انهما من حمير بن معد بن عدنان .. وقال السهيلي ان ام قضاعة وهي عبكرة مات عنها مالك بن حمير وهي حامل بقضاعة فتزوجها معد وولدت قضاعة تكنى به ونسب اليه . (٣) وما كان في نسب قضاعة قد يقع في نسب قبائل اخرى .

ثم ان المهاجرات كانت تحدث قبل الاسلام من اليمن الى الحجاز وبالعكس الى حد اقل ،فتعايش قبيلة يمانية ،مثلا ،قبائل عدنان ويلتبس الامر على المتاخرين فيحسبونها عدنانية . (٤) لا نستطيع ،اذن ،ان نعتمد العرف الشائع في معرفة انساب القبائل . فاذا قال لنا النسابون ان بكرا وتغلبا اخوان من وائل فان

---

(١) الاغاني . جـ ٧ . ص: ٧٣

(٢) ديوان جرير (مطبعة التقدم . مصر ،١٣١٣ هـ) جـ ١ ص: ١٠٧

(٣) ابن خلدون ،تاريخ العبر .. جـ ١ . ص: ٢٤٢

(٤) Encyclopaedia of Islam. Art. Arabia, Ethnology

لدينا مجالا كبيرا للشك في صحة قولهم بل للادلال على بطلانه . فالاخبار العربية لا تحدثنا عن شخص بكر وتغلب . والتحامهما برابطة الاخوة لا يعني ضرورة انهما من اصل واحد . اذ ان كلمة "الاخوة" في اللغات السامية كلمة مطاطة جدا تشمل ، فيما تشمل ، التحالف والحماية . (١) وان الضريبة التي كانت ، الى عهد قريب ، تؤديها القبائل المزارعة الى البدو اتقاء عدوانهم او طلبا لحمايتهم تسمى "الخوة" . زد على ذلك كله ان مقياس القوة والسلطان في النظام القبلي هو كثرة الاقرباء والانصار . فطبيعي ان يجد كل رئيس طموح في ضم اكبر عدد ممكن الى قبيلته والحاقهم بنفسه . فتنضم اليه الفصيلة الضعيفة التي يضطرها ضنك العيش واعتداءات القبائل القوية المجاورة الى الالتجاء الى قبيلة قوية والاندماج فيها . " وكذلك ، يقول الهمداني ، سبيل كل قبيلة من البادية تضاهي باسمها قبيلة اشهر منها فانها تكاد تتحصل نحوها وتنسب اليها ." (٢) فكان طبيعيا لجميع هذه الاسباب ان يحدث الخلط والتشويش في الانساب . وقد روى عن النبي انه قال : " تعلموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم ." ويعلق ابن خلدون على هذا الحديث قائلا : " وكل هذا ظاهر في النسب القريب واما الانساب البعيدة العسرة المدرك التي لا يوقف عليها الا بالشواهد والمقارنات لبعد الزمان وطول الاحقاب فهذا ينبغي ان يكون له وجه في البراعة . (٣)"

بيد ان التنويه بتمازج القبائل العربية بعضها ببعض وتبيان مبلغ ما يعتور اقوال النسابين من تشويش واضطراب لا ينفيان حقيقة انقسام العرب الى معسكرين كبيرين : معسكر قحطان ومعسكر عدنان وقيام النزاع على اساس هذا الانقسام . اذ ليس المهم في تفسير اسباب الخصومات بين الجماعات البشرية التدليل على صحة الامر الذي حوله يختلفون وعليه ينقسمون ، انما المهم شعور كل من الفريقين

---

(١) Smith, Kinship... pp: 13-16

(٢) ابو محمد الحسن بن احمد الهمداني ، صفة جزيرة العرب اعتناء مولر (ليدن ، ١٨٩١) ص: ٩٠

(٣) ابن خلدون ، تاريخ العبر جـ١ ، ص: ٤

المتخاصمين ، في وقت معين ، بوجود التمايز الذي يفصله عن الاخر . والواقع ان القبائل العربية كانت تنتمي الى احد الشعبين لانها كانت تشعر بهذه الصلة صح انتسابها ام لم يصح ، فضلا عن وجود فوارق معينة بين هذين الاصلين لا سبيل الى انكارها . اهم الفروق (١) هاتيك نظام الاجتماع : عرب الشمال عامة بدو اهل ابل وخيام يتقلبون في الارض ويطعنون في القفر انتجاعا للرزق والمعاش ، فكان تنظيمهم الاجتماعي ارقى وحكومتهم اثبت . ويرى نيكلسون ان نظرية انقسام العرب الى شماليين وجنوبيين لا تصح الا اذا عنت بالجنوبيين المتحضريين وبالشماليين البدو . (٢) وفارق اخر هو اللغة : اذ تختلف اللغتان في الاعراب والضمائر وفي كثير من الاشتقاق والتصريف . وكان العدنانيون ينظرون الى القحطانيين نظرة استعلاء واعتداد ، نظرة البدوي الى اهل الحضر عامة . وجاء الاسلام في عرب الشمال والقرآن في لغتهم فتقوى عندهم شعور الاعتداد . وكان القحطانيون يقابلون اعتداد العدنانيين باعتداد مماثل ، فهم اكثر من العدنانيين رقيا وارسخ في العروبة قدما لانهم عرب عاربة وغيرهم عرب مستعربة او لانهم سبقوا غيرهم في الاخذ بالعربية وعنهم نقلها العدنانيون . جاء في صبح الاعشى : " وقد اختلف في العاربة والمستعربة فذهب ابن اسحق والطبري الى ان العاربة هم عاد وثمود ... ومن في معناهم . والمستعربة بنو قحطان وبنو اسماعيل . تعلم بنو قحطان العربية من العاربة وتعلم اسماعيل العربية من بني قحطان النازلين على اسماعيل وامه بمكة ، وذهب آخرون منهم المؤيد صاحب حماه الى ان بني قحطان هم العاربة وان المستعربة هم بنو اسماعيل فقط . (٣)

من هنا قام النزاع بين العرب في جميع الاصقاع التي حلوها متخذا اسماء مختلفة . ففي بلاد الشام التي يعنينا امرها كان النزاع قائما بين القيسيين

---

(١) Sayed Ameer Ali, A short History of the Saracens, (London, 1899) pp: 74-76

(٢) Reynold A. Nicholson, A Literary History of the Arabs. 2ded (Cambridge, 1930) p: 45

(٣) صبح الاعشى . ج ١ . ص : ٣١٠

والكلبيين والاولون عدنانيون والاخرون قحطانيون . وتاريخ العرب في سوريا في العصور الاولى للاسلام ،حافل باخبار الفتن والاضطرابات من جراء انقسامهم الى قحطانيين وعدنانيين والى هاشميين وامويين ،فضلا عن تناحر العشائر ذات النسب الواحد فيما بينها من وقت الى اخر . ولكن التاريخ لا يمدنا بمعلومات كافية عن مدى انتشار كل من العدنانية والقحطانية ومواطنها وكميتها العددية . اننا نعلم ان معظم القبائل التي نزحت الى الشام قبل الاسلام كانت قحطانية .(١) فلا نجد من العدنانية الا تغلب التي كانت تنزل الصحراء السورية او ترابط على ضفاف الفرات ،فلما تقدمت جيوش المسلمين فاتحة اعدت تغلب لمناهضتها ففاجأهم خالد معسكرين في موقع يقال له البشرى وهزمهم . (٢) وقد سارت في الحملة التي اعدها ابو بكر الى الشام حمير . واقبلت من بعدها كتائب مذحج ثم قبائل طي فالازد فبنو كنانه . (٣) وانك تلاحظ ان جميع هذه القبائل الا كنانة ـ كانت قحطانية . ويعدد الازدي القبايل التي حاربت في وقعة اليرموك : " خرج الناس على راياتهم وفيها اشراف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبايلهم وفيها الازد وهم ثلث الناس وفيها حمير وهم عظم الناس وفيها همدان وخولان ومذحج وخثعم وقضاعة ولخم وجذام وغسان وعاملة وكندة وحضرموت ومعهم جماعة من كنانة ولكن عظم الناس من اهل اليمن ولم يحضرها يومئذ اسد ولا تميم ولا ربيعة ولم تكن دارهم هناك وانما كانت دارهم عراقية فقاتلوا فارس بالعراق . (٤) ولما تتالت المهاجرات من الجزيرة كان معظمها من القحطانيين ،فاصبحت قوة اليمانيين متمركزة في الشام وقوة العدنانيين مستقرة في بلاد الرافدين واطراف الجزيرة . وكانت قبائل من عرب الشمال قد هاجرت قبل الاسلام الى العراق واسست ديار ربيعة على

---

(١) Hitti. p: 280

(٢) Musil, The Middle. p: 312

(٣) الواقدي . ص: ٤
الازدي . ص : ٦٢

Levy. p: 9

(٤) الازدي . ص١٩٥

والكلبيين والاولون عدنانيون والاخرون قحطانيون . وتاريخ العرب في سوريا في العصور الاولى للاسلام ،حافل باخبار الفتن والاضطرابات من جراء انقسامهم الى قحطانيين وعدنانيين والى هاشميين وامويين ،فضلا عن تناحر العشائر ذات النسب الواحد فيما بينها من وقت الى اخر . ولكن التاريخ لا يمدنا بمعلومات كافية عن مدى انتشار كل من العدنانية والقحطانية ومواطنها وكميتها العددية . اننا نعلم ان معظم القبائل التي نزحت الى الشام قبل الاسلام كانت قحطانية .(١) فلا نجد من العدنانية الا تغلب التي كانت تنزل الصحراء السورية او ترابط على ضفاف الفرات ،فلما تقدمت جيوش المسلمين فاتحة اعدت تغلب لمناهضتها ففاجأهم خالد معسكرين في موقع يقال له البشرى وهزمهم . (٢) وقد سارت في الحملة التي اعدها ابو بكر الى الشام حمير . واقبلت من بعدها كتائب مذحج ثم قبائل طي فالازد فبنو كنانه . (٣) وانك تلاحظ ان جميع هذه القبائل الا كنانة ــ كانت قحطانية. ويعدد الازدى القبايل التي حاربت في وقعة اليرموك : " خرج الناس على راياتهم وفيها اشراف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبايلهم وفيها الازد وهم ثلث الناس وفيها حمير وهم عظم الناس وفيها همدان وخولان ومذحج وخثعم وقضاعة ولخم وجذام وغسان وعاملة وكندة وحضرموت ومعهم جماعة من كنانة ولكن عظم الناس من اهل اليمن ولم يحضرها يومئذ اسد ولا تميم ولا ربيعة ولم تكن دارهم هناك وانما كانت دارهم عراقية فقاتلوا فارس بالعراق . (٤) ولما تتالت المهاجرات من الجزيرة كان معظمها من القحطانيين ،فاصبحت قوة اليمانيين متمركزة في الشام وقوة العدنانيين مستقرة في بلاد الرافدين واطراف الجزيرة . وكانت قبائل من عرب الشمال قد هاجرت قبل الاسلام الى العراق واسست ديار ربيعة على

---

(١) Hitti. p: 280

(٢) Musil, The Middle. p: 312

(٣) الواقدى . ص: ٤
الازدى . ص : ٦٢
Levy. p: 9

(٤) الازدى . ص١٩٥

الدجلة وديار مضر على الفرات . فكان طبيعيا ان يحصل التصادم بين الكلبيين المنتشرين في ارجاء بادية الشام وبين القيسيين . وعلى مرور الزمن اصبح كل من الفريقين نواة حزب سياسي وحركة سياسية معينين . واعتمد الامويون على الكلبيين في تثبيت دعائم دولتهم في سوريا ورفع معاوية عرشه على اكتافهم . وحفظ الكلبيون العرش لمروان بن الحكم بانتصارهم على القيسيين في معركة مرج راهط عام ٦٨٤ . واصبحت الخصومة بين قيس وكلب جزءا من سياسة الدولة الاموية ، تتنازعهما اهواء الخلفاء ومقتضيات السياسة . فاذا استمال الخليفة فريقا راح يسوم الفريق الثاني الوان الاضطهاد فيقف هذا موقفا مناوئا نحو الدولة . جاء يزيد بن معاوية وزاد شقة الخلاف بين القيسيين والكلبيين بان تزوج امرأة من كلب فضلا عن امه من كلب . ورفض القيسيون الاعتراف بخلافة معاوية الثاني وبايعوا ابن الزبير . وجاء سليمان ناهجا سياسة معاوية ويزيد . ولكن يزيد الثاني بتاثير امه المضرية قرب الحزب القيسي وكذا فعل الوليد الثاني . وجاء يزيد الثالث مستميلا الكلبيين . وتعصب مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني امية ، الى القيسية فثارت ثائرة الفريق اليمني وطفق يحدث الفوضى والاضطراب فعجلت هذه الخصومة في تقويض دولة الامويين . وهكذا فقد اصبح الخليفة في اواخر العهد الاموى رئيس حزب خاص اكثر منه رئيس امبراطورية موحدة . وقد ظهر هذا الصراع الثنائي في مختلف اجزاء الامبراطورية يثيره اتفه الاسباب . فقد ظلت منطقة دمشق مسرحا حرب عنيفة طيلة عامين متعاقبين ، سببها ان معديا سرق بطيخة من حديقة يمني . وفي مورسيا باسبانيا اريق الدم عدة سنوات لان مضريا قطف ورقة كرمة من بستان يمني . وكان هذا الصراع سببا رئيسيا في تقويض دولة الامويين وتوقف الزحف العربي نحو فرانسا وانهيار دولة الاندلسيين . (١)

---

(١) Hitti. pp: 280-281

انظر ايضا :

حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي الطبعة الاولى (القاهرة ، ١٩٣٥)
ص ص : ٥٢٧ ـ ٥٣١

حتى اذا دالت دولة الامويين وآلت السيادة الى العباسيين نجد ان النزاع القحطاني ـ العدناني قد خف الى حد كبير، وذلك لزيادة حركة التحضر والاقامة في المدن، ولامتزاج الشعوب الاجنبية بالعرب، ثم لظهور مذاهب دينية ونزعات فكرية انقسم عليها العرب وطغا ولاؤهم لها على عصبيتهم القبلية . اما القسم الذى آثر حياة القبيلة وتقاليدها على حياة المدن فقد اخذ يتبعد شيئا فشيئا عن مقتضيات الرقى والتطور ويقعد عن المساهمة في الحياة الفعالة المنتجة، محتفظا بالرغم من هذا كله بعنفوانه واعتداده القبليين .

وياخذ النفوذ العربي بالتقلص وتطغى العناصر الاجنبية على ارجاء الدولة فتقسم دويلات وامارات . وكان ابرز تلك العناصر الاجنبية التي رفعت نفوذها على انقاض النفوذ العربي العنصر التركي . حتى اذا قوى هذا النفوذ في ايام الواثق نلاحظ ان العرب، والبدو منهم خاصة، يعاملون بقسوة وخشونة . ففي عهد هذا الخليفة " نكل قواد الاتراك بكثير من الاعراب في مواضع مختلفة من جزيرة العرب ... واحتقر الاعراب اول امرهم هؤلاء الترك وقالوا : لمن استنجد بهم، ما هؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا . والله لترينك العبرا ولكن هؤلاء العبيد والعلوج انتصروا عليهم، وكان ~~بغا~~ بغا (القائد التركي) يحضر الواحد تلو الاخر من نمير ويضربه ما بين الاربعمئة الى الخمسمئة واقل من ذلك واكثر . "(١) واثرت هذه الحوادث في نفسية العربي واضعفت من اعتداده القديم . اما في بلاد الشام فقد ظل النفوذ العربي يحسب له الخلفاء كل حساب . " ولما ضعفت القوة المركزية في بغداد شرعت هذه القبائل الهائمة في صحراء الشام ووادى الفرات تحط رحالها وتنشيء مستعمرات ثابتة وتحتل المدن والقلاع، وتكون دويلات ـ فكونت قبيلة تغلب دولة الحمدانيين في الموصل وحلب ~~xxxx~~ (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ) وكونت قبيلة كلاب دولة المرداسيين في حلب (٤١٤ ـ ٤٧٢ هـ) وكون بنو عقيل العقيليين في ديار بكر والجزيرة (٣٨٦ ـ ٤٨٩ هـ) .(٢)

---

(١) ظهر الاسلام . ص: ٨٧

(٢) ظهر الاسلام . ~~ص~~ص: ٥٧ ـ ٥٨

فانت ترى ان كثيرا من قبائل سوريا استوطنت المدن وهجرت حياة البادية، وظل القسم الاخر بين قبائل ممعنة في بداوتها واخرى تتمرجح بين البداوة والتحضر الى ان سيطر العثمانيون على هذه البلاد واصبحت سوريا جزءا من الامبراطورية العثمانية.

ولم يكن للدولة العثمانية سياسة ثابتة تجاه القبائل والبدو منهم خاصة، بل تركتهم وشانهم يقضون حياتهم في غزو وقتال ويعيشون في الارض فسادا. ولم يكن نادرا ان يصطدموا بالحكومة المركزية حين تروم تحصيل الضرائب منهم وظل البدو بعيدين عن عناية الحكومة حتى مجيء مدحت باشا واليا على بغداد عام ١٨٦٩ . اخذ هذا الوالي يشجع البدو على التحضر ويهبهم اراض واسعة فاستوطنت اراض واسعة في مناطق دير الزور والكرك ومعان وشرقي الاردن. وراحت الدولة تمنح بعض الرؤساء لقب الباشوية والبكوية، واحدثت مدرسة لرؤساء القبائل في الاستانة. غير ان هذه الوسائل كلها لم يكتب لها النجاح لان الولاة لم يطبقوها باهتمام واخلاص ولان هدف تلك السياسة كان تتريك القبائل. وظل في حالهم المتاخرة تلك حتى الحرب العالمية الاولى التي كان لها تاثير عظيم في المجتمع البدوي كما سنرى.

البدو

الفصـــل الـثـانـــي

القبيلة العربية ـ مميزاتها وخصائصها

ان اقدم حياة اجتماعية عرفها العرب هي الحياة القبلية . وهذا طبيعي لان بيئتهم الجغرافية واحوالهم المعاشية لم تكن تسمح لهم بغير هذه الحياة . فقد سكن العرب بقعة صحراوية جف هواؤها وشح ماؤها فلا ينبت الكلاء فيها الا قميئا مبعثرا ولا يعرف الناس عيشا رغيدا لذيذا . وتقطعت بينهم وبين العالم الخارجي الاسباب فما عرفوه وما عرفهم الا من خلال المهاجرات التي يضطرهم اليها شظف العيش وقلة موارد الرزق او من خلال الاسفار التجارية ، يقوم بها قليل منهم من حين لاخر . وحدد هذا النوع من البيئة مثلهم الاخلاقية وافكارهم الاجتماعية فما كانوا يقوون على مغالبة غوائل الطبيعة وتحصيل معاشهم افرادا ،كما انهم لم يشعروا بحاجة الى تكتل قومي شامل ،فكان التنظيم القبلي يفي حاجاتهم ويتفق مع حياتهم الموزعة بين حل وترحال وكد واقتتال . ولم يتعد مفهوم الهيئة السياسية عندهم نطاق القبيلة ،فكانت القبيلة الى الفرد العالم الذى يعيش فيه والمجال الذى تبرز فيه حيويته ،فاشاد بحماها وتغنى بامجادها وعير من يقصر في الدفاع عنها . ينظر الى الناس بمنظار قبيلته ويحسبهم جميعا منقسمين الى قبائل وبطون وافخاذ .[1] واذا كانت الاسرة هي اول وحدات الاجتماع نشوا واقوها على البقاء وان قيام النظام القبلي مرحلة طارئة من مراحل التطور الانساني تحدث بفعل ظروف خاصة ـ فان بقاء هذه الظروف قرونا واجيالا في البيئة العربية احدث تاثيرا عميقا في نفسية العربي وخلقه حتى غدا عسيرا عليه ان يتحرر من هذا التاثير تحررا تاما سريعا بعد استيطانه واتخاذه اشكالا من التنظيم السياسي اوسع وارقى من الشكل القبلي . فلنحاول اذن ان ندرس القبيلة العربية لنتبين مدى رقيها واهم ميزاتها :

---

(١) يذكر موزل انه حضر مجلسا من مجالس نوري الشعلان ،امير الرولا ،ابان الحرب العالمية الاولى انتظم فيه علية القوم . وكانوا يتحدثون عن العالم كانه مقسوم الى قبائل وبطون وافخاذ . فاوربا ـ كما قال لهم الامير ـ مجموعة قبائل تحكمها قبيلة الفرنج كما تحكم اسرة ابن السعود ارضا واسعة وقبائل مختلفة ،وان سبب النزاع القائم انذاك هو محاولة قبائل الالمان والنمسة للتخلص من سيطرة الفرنج وحلفائهم (Deserta pp: 441-442)

واول سوءال نستهل به دراستنا هذه هو: هل كانت القبيلة العربية ،في زمن ما ،امومية التركيب ام انها كانت ابدا ابوية؟ وبعبارة اخرى: هل كانت صلات النسب واسباب مراكز الافراد في الهيئة الاجتماعية متصلة بالمرأة وراجعة اليها؟ يقول كثير من الموءرخين ان التنظيم الاجتماعي عند العرب كان اموميا قبل ان يصبح ابويا . (١) ويستدلون على ذلك من وجود قبائل كثيرة اسماوءها في صيغة التانيث كجديلة وخندف وحنيفة وباهلة وعدوية وبجيلة وغيرها كثير . ثم ان الزواج الشائع عند العرب قبل الاسلام المسمى بزواج المتعة ليس- في رايهم الا بقايا حياة اجتماعية سابقة كانت الامومية اساس نظامها السائد . ويختلف زواج المتعة عن زواج البعل ان الاول لا يستهدف من عقده تاسيس بيت وانجاب اولاد ، انما غايته ان يتيح للرجل امرأة يتمتع بها حينا من الزمن ثم ينفصلان ،وتزول الرابطة الزوجية بحلول اجل العقد . (٢) وثمة حالات عديدة لا تخرج فيها المرأة المتزوجة من بيت اهلها بل تستقبل زوجها فيه ،وذلك حين ينهمك الرجل بامور- كالتجارة - لا تسمح له بتاسيس بيت دائم مستقر . وحين رحل هاشم بن عبد مناف الى يثرب وتزوج هناك سلمى بنت عمرو من بني النجار اشترطت عليه هذه ان تبقى سيدة نفسها وتكون لها الحرية في ان تنفصل عنه متى تشاء . وقد ولد من هذا الزواج عبد المطلب ولازم الطفل عشيرة امه حتى غدا يافعا . و ويستشهد هوارت ،المستشرق الافرنسي بهذا الزواج للتدليل على وجود نظام اجتماعي سابق كانت المرأة العربية تتمتع فيه بسيادة وحرية اى كان النظام اموميا . (٣) وما برحت رابطة الولد باخواله قوية متينة عند العرب حتى اليوم . ومن امثلتهم المتداولة: الولد ثلثاه خاله . زد على ذلك كله ان معظم كلمات القرابة في اللغة العربية تتصل بالمرأة كرحم وبطن وامة الخ .

هذا هو مجمل الاقوال التي ترجح وجود الامومية في المجتمع العربي

---

(١) يقول بهذا Smith, Kinship , p: 29. p: 36
Shaeffer pp: 3-5
Huart. Vol. 1. pp: 11-17

(٢) Levy. pp: 164-166

(٣) Huart. Vol. 1. p: 16

القديم . ولكننا لا نستطيع قبول هذا الراى على علاّته . فهو يتعارض تماما مع النظرية التي اسلفنا ذكرها في الحديث عن الاموية في المجتمع الاولى . تقول هذه النظرية بان النظام الاموى لا يقوم في مجتمع تكون ظروف الحياة فيه قاسية واسباب العيش شاقة قليلة . ونوع البيئة العربية، تبعا لهذه النظرية، لا يمكن ان يسمح للمرأة ان تتولى تنظيم الهيئة الاجتماعية او تغدو مصدر المراكز فيها - الا اخذنا بنظرية حديثة تقول بان بلاد العرب كانت خصبة غنية ثم اصابها الجدب والجفاف لاسباب طبيعية، وهي نظرية لم تدخل بعد سياق البحث العلمي العام .

ان الاستدلال على قيام النظام الاموى في المجتمع العربي القديم من وجود اسماء قبائل وبطون وافخاذ في صيغة التانيث او من طبيعة الزواج المتبع عند عرب الجاهلية استدلال واه ضعيف . فالقبائل المؤنثة التسمية تقابلها قبائل كثيرة في صيغة التذكير . والزواج الموقت انما يدل على تفكك المجتمع العربي القديم وفساد الحياة العائلية اكثر من ادلاله على وجود الاموية في ذلك المجتمع . ان القصة التي استشهد بها هوارث من زواج هاشم لا يصح ان تتخذ دليلا على شيوع ذلك الزواج لدى العرب كافة . فمجرد التنويه الذى نطالعه في السيرة باخبار سلمى واشتراطها ان يكون الامر بيدها يدل على ان هذا الزواج كان شاذا غير شائع .(1) بيد اننا لا نستطيع ان ننفى وجود النظام الاموى نفيا باتا . وخلاصة ما يمكن قوله هو ان نظام الاجتماع عند العرب كان يتمرجح بين الاموية والابوية وان الثانية كانت اوسع انتشارا في المراكز التجارية الغنية وعند القبائل المتحضرة منها في المناطق المجدبة الفقيرة .(2) واخذت معالم النظام الاموي تزول تدريجيا كلما جد العرب في تطورهم حتى اذا اقتربوا من فجر نهضتهم الكبرى كانت الاموية قد تلاشت وكان الرجل سيد بيته والمهيمن الاول على تصرفات زوجته واولاده .

---

(1) السيرة . ص: ٨٨

(2) كانت قريش موسرة متنعمة، ولذا فقد قوى فيها سلطان الاب . وفي صلح الحديبية الذى عقدته قريش مع محمد سنة ست للهجرة اشترطت قريش على محمد ان يرد اليها كل من ياتيه بغير اذن وليه . (السيرة . ص: ٧٤٧)

الطوطمية في القبيلة العربية :- يرى المؤرخ الشهير روبرتسون سميث ان الساميين على اختلاف اجناسهم مروا بدور الطوطمية . ويقول انه للتدليل على وجود الطوطمية في مجتمع ما يجب ان تتوفر ثلاثة براهين : ١) وجود جماعات في هذا المجتمع مسماة باسماء حيوانات او نباتات . ٢) ان تعتقد هذه باتصالها مع حيوانا او نبات معينين بنسب واحد . ٣) وجود نظرة تقديس الحيوان او النبات الطوطم في ذلك المجتمع . وقد طبق سميث هذه الشروط على البيئة ليدلل على اجتياز القبيلة طور الطوطمية . فلنر، اذن ، مدى نجاحه او اخفاقه في محاولته هذه :

١ ـ ان وجود قبائل وافخاذ واشخاص عند العرب يحملون اسماء حيوانات امر غير مشكوك فيه . ويسرد سميث طائفة من تلك الاسماء .

٢ـ اما اعتقاد العرب او جماعات منهم بانهم يمتون في نسبهم الى حيوان معين او ينتسبون واياه الى اصل واحد فامر لا يستطيع سميث ان يقيم عليه الادلة الواضحة الصريحة . اذ انه يكتفي بسرد بعض القصص المبثوثة في بطون الكتب والتي تشير الى اعتقاد بعض العرب بانتقال ارواح البشر الى الحيوانات ، وبملاحظات بالمر عن عرب صحراء سينا التي جاء فيها ان هؤلاء العرب يعتقدون ان الذئب كان في الاصل انسانا ثم اغتسل بالحليب فاصبح ذئبا .

٣ ـ تفتقر المصادر العربية ، كما يعترف سميث ، الى اية اشارة عن قيام فكرة تقديس الحيوانات عند العرب . ولكنه يعلل هذا الافتقار الى ما القته المصادر الاسلامية من حجب كثيفة حول حياة الجاهلية فلم تصلنا اخبار معتقداتهم واساطيرهم . وعلى الرغم من هذا فقد حاول ان يستشف من خلال هذه الحجب الكثيفة بعض مظاهر تقديس العرب لحيواناتهم كتمثيل بعض العرب آلهتهم باشجار . ثم ان اشكال الوسم الذى يسمون به ابلهم ليست ـ على رايه ـ الا رموز طواطم كان افراد القبيلة يؤمنون بها ، فتسم كل قبيلة ابلها ومواشيها برمز يدل على طوطمها . ويرى سميث ان الوسم لم يكن مقتصرا على الابل بل تعداه الى افراد القبيلة .(١)

---

(١) Smith, Kinship.. pp: 217-251

مناقشة راى سميث : نلاحظ في كلامه مبلغ الجهد الذى تكلفه للادلال على وجود الطوطمية في المجتمع العربي القديم . وناخذ عليه استناده الى اخبار قليلة غامضة في الوصول الى النتيجة التي يرمى اليها . فشيوع اسماء الحيوانات عند القبائل ليس مبعثه اعتقادهم بالطواطم ،لان هذه القبائل ،كما يلاحظ هوارت ،لا ترجع في تاريخها الى عهد بعيد لنستنتج ان اسماءها بقايا طوطمية قديمة . (١) ولاطلاق اسماء الحيوانات على الاشخاص والقبائل اسباب عديدة . جاء في صبح الاعشى : " الغالب على العرب تسمية ابنائهم بمكروه الاسماء ككلب وضرار وما اشبه ذلك ،وتسمية عبيدهم بمحبوب الاسماء كفلاح ونجاح ورباح ،والمعنى في ذلك ما حكى انه قيل لابى الدقيس الكلابى : لم تسمون ابناءكم بشر الاسماء نحو كلب وذئب ،وعبيدكم باحسن الاسماء نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : انما نسمى ابناءنا لاعدائنا وعبيدنا لانفسنا . يريد ان الابناء معدة للاعداء فاختاروا لهم شر الاسماء والعبيد معدة لانفسهم فاختاروا لانفسهم خير الاسماء . (٢) " وقد روى دوتى ان العرب ،حتى المسيحيين منهم ،يطلقون على ابنائهم اسماء حيوانات اذا ولدوا معتلى الجسم هزيلى البنيان اعتقادا منهم ان تسميتهم بهذه الاسماء يكسبهم منعة الحيوان وجلده . (٣)

ثم ان للطوطمية ـ كما اسلفنا ـ طقوسا دينية كثيرة معقدة لا تسمح بساطة الحياة العربية بالقيام بها . فالبدوى بطبعه بعيد عن التعقيد كاره للطقوس . ومشاق العيش كانت تحول دون ظهور اى شعور ديني قوى . (٤) ولذلك فان اليهودية والنصرانية لم يكتب لهما النجاح كثيرا في بلاد العرب لما تكلف المرء من طقوس وفرائض كثيرة وتشتمل على معتقدات مركبة . وعلى الرغم من ان الاسلام

---

(١) Huart, Vol. 1. pp: 26-28

(٢) صبح الاعشى . جـ ١ . ص: ٣١٢

(٣) Charles M. Doughty, Travels in Arabia Deserta, 2 vol. (Cambirdge, 1888) vol.1. p: 329

(٤) Ency. of Religion and Ethics (New York, 1915) art. Ancient Arabs by Th. Noldeke

عن بساطة الدين في الصحراء انظر ايضا :

Ellen C. Semple, Influences of Geographical Environment, (London 1911) p: 514

ابسط الديانات السامية واقربها الى النفسية العربية فقد راى به اكثر العرب عبئا ثقيلا وحاولوا محاربته والتفلت من قيوده . ونحن بلمس عدم اكتراث عرب الجاهلية للدين في اشعارهم واقوالهم ،اذ لا نجد فيها اثر الدين او عقيدة . (١) كانوا يعتقدون بخصوص باله كبير ويصطنعون الهة اخرى للتقرب منه " وما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ... الزمر ٤١ " ،او لمجرد العبث والتسلية .
حكى البيروتي ان بني حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنما من تمر فعبدوه دهرا ثم اصابتهم مجاعة فاكلوه . فقال رجل فيهم :

اكلت ربها بنو حنيفة من جوع قديم واعواز (٢)

ومر اعرابي على صنم مشهور وضع على قارعة الطريق وكان ثعلب يبول عليه فانشد :

ارب يبول الثعلبان على راسه لقد ذل من بالت برأسه الثعالب . (٣)

يقول دوزى : " وكانوا يغضبون من الالهة ويجبهونها بحقيقة ما يعتقدون كما كانوا يتحدونها . " (٤) وكانوا يستشيرون الازلام فاذا جاءت مشورتها على غير ما تهوى نفوسهم طرحوها ارضا وسخطوا عليها .

فالطوطمية ،اذن ،لا يمكن ان يكتب لها النجاح في البيئة العربية .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

نظام الحكم في القبيلة العربية - يقول ولستد : " ان من اهم مميزات هذا الشعب الطريف (الشعب العربي) هو حكومته المشيخية (يتكلم عن القبائل) التي تكاد تكون في تشكيلها وقوتها ظاهرة سياسية في تاريخ العالم . فعلى الرغم من انها ليست جمهورية ولا ارستقراطية فانها تجمع عناصر هذين النظامين جميعها .
وحين ننظر الى تاريخها الطويل وصمودها لتغيرات الزمن وتقلبات الاحوال فاننا

---

(١) Nicholson. p: 135

(٢) محمد ابو الريحان البيروتي: الاثار الباقية عن القرون الخالية (ليبزك ،١٨٧٨) ص: ٢١٠

(٣) تاج العروس . ج . ١ ص: ١٦٤

(٤) تاريخ الاسلام السياسي . ص: ٢٣٨

نجد موضوعا طريفا جديرا بالبحث والدراسة.[١] ويقول فولني في هذا المعنى : ان حكومة هذا المجتمع (المجتمع القبلي) هي جمهورية وارستقطراطية ،بل واستبدادية ايضا دون ان تتخذ شكلا واحدا من هذه الاشكال ،فهي جمهورية لان الشعب له الكلمة الاولى في جميع الامور،ولا يبرم امر ما بدون ان يحوز على رضى الاكثرية ،وهي ارستقراطية لان الاسر الحاكمة لها امتيازات كثيرة بحكم مركزها وقوتها ،واخيرا فانها استبدادية لان سلطة الشيخ غير محددة ،وعدم تحديدها يكسبها صفة الحكم المطلق .[٢] على الرغم من صدق ملاحظتي ولستد وفولني فاننا لا نستطيع ان ننظر الى حكومة القبيلة الا على انها ديموقراطية شورية .[٣] فالرئاسة في القبيلة ليست وراثية ،بل تقوم على اساس ثقة الافراد بها وتاييدهم اياها ـ اى على اساس انتخاب شعبي عام . ان الفردية العظيمة التي يتصف بها العربي لتابى الخضوع لاى شكل من اشكال الحكم المطلق . ويقول نولدكه ان مقاومة العرب لمحمد كانت في اعمق اسبابها تعبيرا لنفورهم من حكم الفرد المطلق الذى خيل اليهم ان محمدا يحاول فرضه عليهم .[٤] ولكن الاسلام جاءهم بنظام شورى ديمقراطي يتساوى في ظله الجميع ولا يقضي الحاكم امرا قبل مشاورة ذوى الراى والحكمة والحصول على ثقتهم .[٥] ولذا فان عهد الخلفاء الراشدين هو العهد الذى يمثل نفسية العربي وخلقه ،ويسميه سيد امير على عهد الجمهورية (في كتابه المشار اليه آنفا) ويدلنا على تحكم هذه النزعة من نفس العرب ما جرى في قصة التحكيم المشهورة بين على ومعاوية فكان مندوب على ابو موسى الاشعرى يعبر عن ميل العرب الى الشورى فارتأى على عمرو بن العاص خلع الرجلين وجعل الامر شورى فيختار المسلمون لانفسهم من احبوا .

---

(١) James R. Wellested, Travels in Arabia, 2 vol. (London, 1938) Vol. I. pp: 354-355

(٢) Constant F. Volney, Oeuvres complets de Volney, (Paris, 1860) p.205

(٣) انظر : حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن ،النظم الاسلامية ، (القاهرة ، ١٩٣٩) ص: ١٩٣

(٤) Ency. of Rel. and Ethics. art. Ancient Arabia,

(٥) انظر : النظم الاسلامية . صص: ١٩٤ ـ ١٩٥

ولما جاء معاوية بفكرة الملكية تنكر العرب لها وحاولوا حربها . ولما اوعز معاوية الى مروان بن الحكم ان يدافع عن ابنه يزيد ويطلب البيعة له قائلا : ان امير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد بعده . قام عبد الرحمن بن ابي بكر غاضبا وقال : كذبت والله يا مروان وكذب معاوية . ما الخيار اردتما لامة محمد ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل .[1] ولكن حزم معاوية ودهاءه قضيا على كل مقاومة ومكنا بذور الملكية في التاريخ العربي . ولم يكن لقب ملك مستعملا عند العرب الا حين يذكرون الفرس والرومان او الاسر العربية الواقعة تحت نفوذهم كالمناذرة والغساسنة، وملوك كندة هم الاستثناء الوحيد .[2] واذ كنا نجد في الواقع ان رئاسة القبيلة تنتقل من الاب الى ابنه في كثير من الحالات فما ذلك الا لكون الابن قد تربى تربية سياسية صحيحة في ظل ابيه فاكتسب بحكم المعايشة والمراس جميع الفضائل التي تؤهله لهذا المنصب، او كما يقول نيكلسون : " ان الحكم في القبيلة ديموقراطى يديره رئيس القبيلة مستمدا سلطته من اصالة دمه ونبل اخلاقه وثرائه وحكمته واختباراته ".[3] فاذا حاد الرئيس في حكمه عن السنة الرشيدة المعترف بها من قبل رعيته فقد منصبه وجيء بغيره . واهم المؤهلات لتسنمه منصب الرئاسة ان يكون كريما سمحا وفارسا مقاتلا وحكيما عالما بدخائل القبيلة ومشاكلها ملما بعاداتها وتاريخها . وللثروة اثر قوى في انتخابه . ولكنها ليست شيئا اذا لم تقترن بالكرم . قال حسان :

نسود ذا المال القليل اذا بدت مروءته فينا وان كان معدما

وقال اخر :

اذا المرء اثرى ثم قال لقومه انا السيد المفضى اليه المعمم
ولم يعطهم خيرا ابوا ان يسودهم وهان عليهم رغمه وهو اظلم

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ (ليدن . نورنبرج ١٨٦٨،) ج ٣ ص: ٤١٩ - ٤٢١
(٢) Hitti. p: 28
(٣) Nicholson. p: 83

تولف القبيلة كيانا سياسيا مستقلا قائما على اساس تماسك افراد القبيلة وتضامنهم . بيد ان هذا التماسك ـ كما اشرنا من قبل ـ معرض دوما الى التصدع بفعل ما تثيره الفردية في نفس العربي من حب التفلت من كل قيد والثورة على السلطان ، فتنشق القبيلة الكبيرة على نفسها كتلا صغيرة تولف كل منها كيانا سياسيا جديدا . غير ان ثمة قوى تقابل عامل التصدع وتبطل عمله او تحول دون استمرار التجزء والانقسام . فنزعة العربي المحافظة وميله الى ابقاء القديم على قدمه وارتباطه مع افراد قبيلته بميثاق شرف غير مكتوب ، ثم عامل المصلحة المادية الذى يقضي ببقائه متضامنا مع اكبر عدد ممكن ليتيسر له تحصيل معاشه ويدرأ اعتداءات الاخرين عليه ـ كل ذلك يمسك القبيلة عن الانقسام والتصدع الى حد كبير . واننا نجد بعض القبائل العربية لا تزال على حالها كما كانت قبل مئات السنين ، كبنى عدوان وهوازن الذين ما برحوا يحتفظون باسمهم وديارهم كما كانوا في زمن النبي . (١) ويعمل على حفظ كيان القبيلة من التداعي حرص العربي على نسبه والمفاخرة به . وقد المعنا سابقا الى الخلط الواقع في اقوال النسابين والى التمازج المستمر بين القبائل العربية بحيث يتعذر على المرء تعيين نسب قبيلة ما اذا كانت قحطانية ام عدنانية . بيد ان هذا الاضطراب الذى يقع في انساب القبائل لا يقع في انساب الافراد . فالمرء في قبيلته ، سواء كانت هذه القبيلة عدنانية ام قحطانية ، مرتبط بها اشد الارتباط لا قبل له من الفلات لانه يخسر عندئذ حقه في الحياة ويصبح شريدا طريدا . (٢) ولم يرفع شعب غير العرب معرفة الانساب الى مرتبة العلم . وكان عمر بن الخطاب يقول : " تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال من قرية كذا .. " (٣) ويرى ابن خلدون ان هذا طبيعي " وان التمسك

---

(١) Sir William Muir, The Life of Muhammad (Edingurgh, 1923) p. XCIV

(٢) اقرأ رايا مناقضا لاوليرى ص: ١٣

(٣) مقدمة ابن خلدون ص: ١١٣

بالنسب وحفظه من طباع المتوحشين وذلك لنكد العيش وشظف الاحوال فلا ينزع اليهم احد من الامم في حالهم . واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبنو اسد وهزيل ومن جاورهم من خزاعة ،لما كانوا اهل شظف ومواطن غير ذى زرع ولا ضرع ... كيف كانت انسابهم صريحة محفوظة ." (١) واكثر ما يلهج به العرب في سمرهم هو حديث الانساب . ولا يزال الطعن بالنسب جريمة لا تغتفر اذا لم يقم الدليل على صحته .

<u>الحياة الاقتصادية</u> ــ واخيرا لا بد لنا من ان نلقي نظرة على حياة القبيلة الاقتصادية وموارد رزقها . ليس لدينا من الادلة والاسباب ما يحملنا على الاعتقاد ان المجتمع العربي القديم عرف الشيوعية في اقتصادياته . (٢) غير ان قلة موارد الرزق عند القبيلة وتماسك افرادها تماسكا جعلهم يتقاسمون الافراح والاتراح مهر الحياة الاقتصادية باشتراكية اولية . وجاء الاسلام يحمل في تعاليمه السمحة ميولا ديموقراطية اشتراكية . وكانت الخزينة العامة (بيت المال) في عهد الراشدين ملكا لجميع المسلمين ،يوزع عليهم دخل الدولة توزيعا صحيحا عادلا . (٣)

اما حالة القبيلة المادية فكانت ضيقة شديدة (الا بعض القبائل التجارية كقريش او العرب المتحضرين في المدن والقرى)،وموارد رزقها شحيحة قليلة . وكان الغزو وسيلة من وسائل العيش والارتزاق . غير انه يجب الا نغالى في حصر اسباب الغزو بالمادية . فالحصول على الغنائم والاسلاب ليس الا غرضا واحدا ــ ويكاد يكون ثانويا ــ من اغراض الغزو . (٤) من اغراضه الاساسية الاخذ بالثأر او الانتقام لشرف مثلوم وكرامة مهانة . وقد يثير رئيس القبيلة الغزو لمجرد اشباع طموحه او ارضاء لزوجته التي يشوقها ذكر الوقائع والحروب " كما ينقل عن احد روءساء بني لام الذى كانت له زوجة وتوفي عنها فتزوجها اخوه ،وكان يضارعه في رسومه واشكاله ،الا انه بعيد عن الحروب والغزو على خلاف ما كان عليه

---

(١) نفس المصدر ص ص: ١١٢ ــ ١١٣

(٢) يرجح شافر ان الشيوعية كان معمولا بها في المجتمع العربي القديم (Shaeffer pp: 135-193)

(٣) انظر : Ameer Ali. pp: 185-186

(٤) قابل W.G. Palgrave, <u>Central and Eastern Arabia</u> , 2 vol. iii ed. (London, 1866) Vol. 1. p: 34

زوجها الاول ،فلم يرق لها الزوج الجديد ،وقالت قصيدة منها :

الزول زوله والخلايا خلاياه   والفعل ما هو فعل منافي الخطائل

علم زوجها الخبر ... فعزم ان يظهر بما ترضاه .... فذهب الى الغزو....
وقام باعمال جليلة .... فاستقبلته بقصيدة مدحته فيها .... وذهبت منها
الفكرة الاولى " (١)

ان نوع البيئة التي كان يعيش فيها معظم العرب ولا يزال يعيش فيها البدو منهم جعل التناحر والقتال امرا طبيعيا وجزءا من حياتهم الاعتيادية . بل هم اذا لم يجدوا عدوا من غيرهم قاتلوا انفسهم كما يقول القطامي :

واحيانا على بكر اخينا   اذا لم نجد الا اخانا

تقول مس بيل عن الغزو: ان الغزو هو الصناعة الوحيدة التي تعرفها الصحراء والتسلية الوحيدة ،اما كونه صناعة فانه يظهر للعقل التجاري انه يستند على فكرة خاطئة لقوانين العرض والطلب ،ولكن كتسلية فثمة مسوغات كثيرة : فروح المغامرة والحماس التي يثيرها القتال والمجد الذي تناله القبيلة الظافرة والغنائم التي تحصل عليها ـ كل هذا له اهمية في حياة الصحراء . (٢) وقد جعل الغزو من العربي مقاتلا عنيدا شديد المراس صلب القناة ،فلما جاء الاسلام حرم الغزو ووجه روح الاقدام والشجاعة عند العربي الى النضال في سبيل اعلاء كلمته ونشر رسالته . والغزو يعود باضرار بالغة على الحياة العامة ،فهو يعرض كيان القبيلة دوما للتفسخ وثروتها للزوال . وكم من قبيلة قريرة العين ناعمة البال فتغزى في عقر دارها فاذا هي عارية فقيرة .

تلك هي حال القبيلة العربية استعرضناها بسرعة وايجاز . وهذه الصورة تظل ناقصة غامضة ان نحن اغفلنا دراسة الخلق العربي واستكناه اهم خصائصه ومميزاته واول حقيقة يجب ان نقررها في دراستنا الخلق العربي هي انقسام العرب

---

(١) عباس العزاوي ،عشائر العراق (بغداد ،١٩٣٥) ص: ٣٥٠

(٢) Gertrude L. Bell, The Desert and the Sown, (London, 1907) p: 66

بحسب نوع بيئتهم ودرجة رقيهم الى قسمين : شعب راحل وشعب مقيم . وقد اختلف في اطلاق كلمة عرب واعراب . نقل القلقشندى تعريفا للجوهرى جاء فيه : ان العرب جيل من الناس وهم اهل الامصار، والاعراب سكان البادية، والنسبة الى العرب عربي، والى الاعراب اعرابي . والتحقيق ـ كما يقول القلقشندى ـ اطلاق لفظ العرب على الجميع، وان الاعراب نوع من العرب ".(١) ولعل التمييز بين العرب (اهل الحضر منهم) وبين الاعراب ليس في حقيقته الا تمييزا بين عرب الشمال وعرب الجنوب . اذ ان عرب الشمال باستثناء قريش وقبائل اخرى قليلة، كانوا امة راحلة يتقلبون في الفيافي والقفار، لا يعرفون لهم وطنا ولا مستقرا، والمقيمون منهم كانوا يعيشون عيشة بدوية . غير اننا لا نستطيع مع ذلك ان ننكر وجود فوارق بين العرب وبين الاعراب حتى عند عرب الشمال . وقد قدم لنا ابن خلدون دراسة وافية عن هذه الفروق .(٢) فالبدو لاقتصادهم على الضرورى في حياتهم وعجزهم عن تحصيل الكمال منها اصل لاهل الحضر" ولا شك ان الضرورى اقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليهما لان الضرورى اصل والكمالي فرع ناشئ عنه" والبدو اقرب الى الخير من اهل الحضر" وذلك لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا ... واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه في المقدار الضرورى لا في الترف" وهم اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر واعظم جلدا على احتمال المكاره .

غير ان ابن خلدون بعد هذا التمييز الواضح يلتبس عليه الامر فيخلط بين العرب والاعراب ويطلق صفات الاعراب على العرب عامة . وقد التبس الامر من بعده على كثير من المستشرقين وكتاب الغرب متأثرين به وغير متاثرين، جاهلين او متعمدين .(٣)

والاعراب لاغراقهم في بداوتهم اقسى طبعا واخشن حديثا من العرب

---

(١) صبح الاعشى جـ ١ . ص: ٣٠٧

(٢) المقدمة . ص ص: ١٠٦ ـ ١١١

(٣) انظر فجر الاسلام . ص ص: ٣٠ ـ ٣٧

George R. Lees, The Witness of the Wilderness, (London, Greens and Co., 1909)

الاخرين . ولما كان همهم الاول تحصيل معاشهم ، ولا يصلهم الا بالكد والضنى فقد كانت عنايتهم بالامور العقلية قليلة او معدودة ومعارفهم ضيقة ، وكانوا اكثر بعدا عن الدين من اخوانهم العرب واقل اكتراثا له . ولما جاء الاسلام دخلوا فيه اما طمعا في الربح والغنيمة او خوفا و ~~خشية~~ رهبة . وكان محمد عليما بنفسيتهم فاهما خفاياها فعاملهم بالشدة .

جاء في سنن النسائي " ان اعرابيا بايع رسول الله (ص) ~~xxxxxxxxxxxx~~ على الاسلام فاصاب الاعرابي وعك بالمدينة فجاء الاعرابي الى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله اقلني بيعتي فابى ثم جاءه فقال له اقلني بيعتي فابى فخرج الاعرابي فقال رسول الله (ص) : انما المدينة كالكير تنفي خبثها وتنصع طيبها . "(١) ورماهم القرآن الكريم بالنفاق والرياء " الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم ." (التوبة) " وقالت الاعراب امنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم " (الحجرات) وكانوا يناصرون محمدا في وقت ظفره وقوته ويقعدون عنه في ساعة الشدة والباساء " سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا ~~لولنا~~ اموالنا واهلنا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل من يملك لكم من الله شيئا " (الفتح) " وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم " (التوبة) وكان المعذرون كما بلغ ابن هشام نفرا من بني غفار . (٢)

ولم يتاثر البدو كثيرا بالاسلام . وان الحماس والتضحية اللذين قامت عليهما رسالة الاسلام كانا من نصيب العرب المتحضرين او الذين عافوا حياة البادية واخذوا بأسباب التحضر . ويلاحظ بالكراف السائح الانكليزى (في اوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر) ان البدو لا يفقهون من الاسلام اكثر مما يعرفه الانكليز عن

---

(١) سنن النسائي . شرح جلال الدين السيوطي (مصر ١٩٣٠) كتاب البيعة ج ٧ ص: ١٥١

(٢) السيرة ص: ٩٢٧

الاسلام "[1] ويذكر موزل انه لم يشاهد في غضون عامين متواليين (١٩٠٨ ــ ١٩٠٩) رويليا واحدا يقيم الصلاة .[2] ولا يزال البدو يحلون مشاكلهم تبعا لتقاليدهم المرعية بصرف النظر عما اذا كانت هذه التقاليد تتفق واحكام الدين الاسلامي او لا تتفق .

ان مشاق الحياة التي يحيونها لا تسمح لهم بالقيام بطقوس دينية معينة وبالتالي القاء نظرة شاملة على الكون . وقد سجل فولني السائح الافرنسي (خلال السنين ١٧٨٣، ١٧٨٤، ١٧٨٥) حديثا جرى له مع نفر من البدو في سوريا حول عدم تمسكهم بفرائض الدين . فقالوا له : كيف نصلي وليس عندنا ماء نتطهر به؟ كيف نزكي ولسنا اغنياء؟ لم نصوم رمضان ونحن صيام طوال السنة؟ ولم نذهب الى مكة والله موجود في كل مكان .[3]

غير انه يجب الا نغالي في تقليل اثر الاسلام في حياة البدو . فقد طبع الاسلام هذه الحياة في اكبر خطوطها وغير الكثير من عاداتهم وتقاليدهم .[4]

لنعود الى المفاضلة بين العرب والاعراب : كان كلا الفريقين ينظر نحو الاخر نظرة امتهان وازدراء . فكانت قريش ولها سدانة الكعبة وزعامة العرب تعتبر الاعراب قوما اجلافا غلاظا . حكي انه حين قصد محمد مكة للعمرة ، سنة ست للهجرة ، ونزل في الحديبية (وهي موضع على مسافة ستة اميال من مكة) علمت قريش بالامر فارسلت اليه من ينذره ويهدده بالويل والثبور اذا هو تابع سيره الى مكة . وكان احد رسلها الحليس بن علقمة سيد الاحابيش وزعيمهم . ذهب الحليس الى النبي

---

(١) Palgrave. Vol. 1. pp: 9-10

(٢) Musil, Deserta, p: 427

(٣) Volney. p: 207

(٤) يدعي ليز ان الاسلام لم يغير من خلق الشعب العربي شيئا ، بل شجع الناحية العاطفية فيه . وينعت الكاتب النبي محمد بالبربرى لانه جعل من التقتيل والتمثيل واجبات دينية (Lees pp: 200-201)

موفدا من قريش، ولكنه راى منه ما بهره فسلم بحجته ورجع الى قريش يخبرها بصحة موقف محمد . انكرت قريش صنعته وتهاونه وقالوا له : ما نعجب منك ولكن نعجب منا اذ ارسلناك، انما انت اعرابي جلف " (١) وقد اختلف في امر الاحابيش فيما اذا كانوا عربا ام احباشا (من الحبشة) والتحقيق، في راينا، ما جاء السيرة انهم كانوا قوما من كنانة وخزاعة تحبشوا اى تجمعوا وسموا الاحابيش . (٢) وسواء اصح هذا القول ام لم يصح ، فان قريش وغيرها من القبائل المتحضرة كانت تنظر باعتدار [باعتزاز] وتعال نحو الاعراب . وكان البدو بدورهم ينظرون باحتقار وامتهان الى قريش واهل الحضر عامة . والبدوى لا يستطيب عيش المدينة ولا يروقه ضجيجها وهو يحتقر الصناعة والتجارة . فكانت اتعس ساعاتهم تلك التي يقضونها في مكة . وما عساهم يجدون فيها ؟

ولا مرتع للعين او متقنص   ولكن تجرا والتجارة تحقر

وكانت حليمة ، مرضعة الرسول ، تحرص على الاحتفاظ بمحمد وعدم الاتيان به الى مكة لانها " تخشى عليه وباء مكة " (٣)

الفرق بين العربي والاعرابي هو الفرق بين اسلوبين متمايزين من اساليب الحياة الانسانية . العربي متحضرا ارفع انسانية واصفى ذوقا واكثر دراية منه بدويا . واليك ما يقوله بالكراف في هذا الشان : " انك تجد النفس الانسانية عند البدو في احط دركاتها ... هذا الانحطاط هو نتيجة بيئتهم المعاشية .. التي دنتهم الى هذا المستوى وهم من انبل اجناس البشر - اعني بهؤلاء العرب المتحضرين . اقول من انبل الاجناس لانني ، بعد اسفار متعددة واختلاط مستمر بشعوب اوروبية وافرقية واسيوية ، لا استطيع ان افضل جنسا على العرب " (٤)

---

(١) تقي الدين احمد بن على المقريزى ، امتاع الاسماع الجزء الاول (القاهرة ، ١٩٤١) ص: ٧٤٣
السيرة ص: ٢٨٩

(٢) الطبرى جـ ١ ص: ١٥٣٨

(٢) تاج العروس والسيرة ، كتب الاب لامنس كتابا عن الاحابيش فليرجع اليه
Les Ahabis et l'organization militaire dela Mecque au siecle de l'Hegire (Paris, 1916)

(٣) السيرة ص: ١٠٥

(٤) Palgrave. Vol. 1. pp: 24-25

الا اننا نعود فنقول ان العرب جميعهم كانوا يعيشون قبائل وان التفاوت بين البدو منهم واهل الحضر انما هو في درجة نكد العيش. وكان احجامهم عن الاسلام وعدم تاثرهم به نتيجة لهذا العيش، وهم يظلون غير متاثرين به ما داموا يحيون حياة خشنة عسيرة. اما اذا تحضروا فانهم يصبحون من اشد الناس تمسكا بالدين وغيرة عليه. ولم يكن القرآن ولا محمد ينظران اليهم نظرة تنكر وحذر لانهم اعراب بل لانهم منافقون. فاذا رماهم القرآن بالنفاق والكفر فانه اكد ان منهم "من يؤمن بالله واليوم الاخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ..." (التوبة) وكان عمر بن الخطاب حريصا على معاملتهم معاملة تقرب اليهم الاسلام. ومن اقواله : "اوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله والمهاجرين الاولين .... واوصيه بالاعراب خيرا فانهم اصل العرب ومادة الاسلام وان يؤخذ من حواشي اموالهم فيرد على فقرائهم وان لا يكلفوا الا طاقتهم". (١)

الخلق البدوي - اما وقد اتينا بايجاز على المفاضلة بين العرب والاعراب فاننا نستطيع الان دراسة اهم مميزات الخلق الاعرابي. ليس من اليسير دراسة نفسية شعب من الشعوب وتفهم مميزاتها لكثرة العوامل التي تفعل في تكوين هذه النفسية وتفاوتها قوة وتاثيرا ثم لتطور اخلاق الشعب تبعا لتغير الاحوال والازمان فالعربي متبديا غيره متحضرا والانكليزي الذى كان يعيش في عهد الملكة اليزابيت غيره في القرن العشرين. لذا كان لزاما على من يحاول تفهم نفسية شعب ما ان يدرسها خلال زمن معين وبالنسبة الى درجة معينة من الحضارة ويظل البحث مع ذلك ناقصا، اذ لا يستطيع المرء ان يعرض مزايا شعبه ومساوءه عرضا صحيحا نزيها لانه يعيش تلك المزايا والمساوئ عيشا شعوريا ولا شعوريا. واذا كان الباحث اجنبيا عن تلك النفسية فهو لا يقدر على الاحاطة بجميع خفاياها وفهمها فهما واعيا عميقا - مهما دقت ملاحظته واتسعت اختباراته واننا لندرك صعوبة البحث في دراستنا للنفسية العربي لما تنطوى عليه هذه النفسية من غموض وتناقض. انها نفسية غريبة استطاعت ان تجمع الكثير من

---

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير (ليدن، ١٩٠٤) جـ ٣ ق ١ ص ص: ٢٤٥ - ٢٤٦

المتناقضات، وتصهرها صهرا متينا في كل واحد منجسم يصعب تحليله والنفوذ الى اسراره • يقول دفوجر : " ان اهم ميزة بارزة في الخلق العربي هي هذا المزج بين نزعة النهب ونزعة الضيافة ، بين روح الاغتصاب وروح التسامح ، بين القسوة وآداب الفروسية ... هذا الخلق الذى يجمع بين اشد السجايا تناقضا جمعا منظما يثير في النفس شعور الاعجاب وشعور الاحتقار في آن واحد • (١)
ويقول لامنس بهذا المعنى " لقد اثارت شخصية البدوى الغامضة فضول المستشرقين اذ لا يوجد احد غير البدوى استطاع ان يجمع في خلقه متناقضات شتى وان يوفق بينها ويؤلف بينها • (٢)

فلنحاول ان نتعرف الى بعض هذه المتناقضات :

الفردية : تستطيع ان ترجع فضائل البدوى ومعائبه الى فرديته • ونعني بالفردية تلك النزعة الاستقلالية التواقة الى الانفلات من كل قيد والثورة على كل سلطان • فالبدوى ، والعربي بصفة خاصة ، حريص على حريته لا يرتضى عنها بديلا اولها حدا وتقييدا • (٣) ويبلغ حرص البدوى على حريته حد التهوس والجنون ، فهو يثور على كل سلطان يحاول الحد من حريته حتى ولو كان هذا الحد في صالحه ولخيره • وتقرأ في اشعاره واقواله احتقاره للسلطان ونفوره من كل حكم :

ايظلمهم قسرا فتبا لسعيه وكل مطاع لا اباالك يظلم

وقد ظل البدوى بعيدا عن متناول الدول والفاتحين احقابا وقرونا • فاليونان والرومان والفرس الذين بسطوا نفوذهم على ارجاء المعمورة وقهروا الشعوب لم يقووا قط على اخضاع البدوى • ويذكر هيرودتس انه بينما كانت فينيقية وفلسطين مضطرتين لارسال جزيات باهظة الى ملوك الفرس كان العرب هم الوحيدون المستثنون • (٥) وقد دفع حب الاعراب لحريتهم ان نفروا من الاسلام خوفا من

---

(١) Lebon p: 40

(٢) H. Lammens, Le Berceau de L'islam, (Romae, 1914) p: 107

(٣) Huart. p: 9

(٤) O'Leary. p: 21

(٥) Lebon. p: 41

ان يقيدهم ويقضي على استقلالهم على الرغم من ان الاسلام هو اقرب الديانات الى عقليتهم وذلك لتحرره من التكاليف التي نجدها في الديانات الاخرى، فلا يمكن ان يقوم في الاسلام نظام كنسي يفرض سلطانه على الفرد لان ذلك لا يتفق مع نزعة العرب الاستقلالية . ونحن نجد البدو ابعد الناس ايمانا بالاولياء وخضوعا لرجال الدين .

تاصلت الفردية في نفس البدوى نتيجة ارستقراطية واعتداده بنفسه . ولذا فان رؤساءه لا ينتظرون منه الا الحسد والبغضاء والخيانة .

ومن صفات البدوى الشجاعة فهو مقاتل عنيد صلب العود ، ولكنه لا يحب سفك الدماء ويستنكر التقتيل والتمثيل ولا يقصد من غزوه القتل واراقة الدم . انهم يقضون ساعات طويلة يقصون قصص المعارك التي خاضوها واساليب الفتك والوقيعة التي استعملوها حتى لتحسب انها معركة بالكلافا او واترلو ... فاذا استقصيت حقيقة ما يقولون وجدت ان المعركة انتهت بجريحين او ثلاثة .. لم يموتوا ، وقد تكون جراحهم طفيفة . (١)

ومن صفات البدوى الصبر . فاصبر سلاحه الوحيد الذى يكافح به حياته المملوءة بؤسا وشقاء والما . انه يولد على الحرمان والالم ويترعرع عليهما ولا حول له على مغالبتهما فيصبحا جزءا من طبيعته لا يتبرم بهما ولا يتافف منهما ، بل انه يجد لذة في الالم وراحة في الحرمان ، كما يقول لورانس. (٢) ولعل هذه الصفة ثمرة من ثمار فردية . المغالبة التي توحي اليه الاعتماد على النفس وتبعث فيه شعور الكبرياء والتعالى حتى على آلامه .

والبدوى صادق القول لا يكذب . ويعد الكذب اهانة لا تغتفر . وهو شريف في معاملته لا يسرق صديقه وجاره او القبيلة التي ينتمي اليها (اما السرقة

---

(١) Palgrave Vol. 1. p: 34 قابل مع : Lees. p: 132

(٢) T.E. Lawrance, Seven Pillars of Wisdom , De Luxe Ed. (New York) p: 41.

من قبيلة معادية فيعد عملا شريفا) وقد لاحظ هذه السجايا جميع السائحين الاجانب الذين اختلطوا مع البدو . (١)

وان حياته الشاقة ذات النغمة الواحدة المتكررة وانشغاله في تحصيل غذائه ثم انعزاله عن العالم الخارجي ـ كل ذلك اضعف فيه الخيال وافقد نفسيته من القيم الروحية السامية . يصفه اوليرى بانه مادى وان ذهنه خال من النزعة الرومانطيقية بل من العواطف . (٢) ان في هذا القول غلوا ومبالغة ، فقصص العشق والغرام واحاديث الغزوات والحروب التي تفيض بها مجالسهم لا تخلو من العاطفة والخيال . ويقول موزل ان البدو كلهم موهوبون بالشعر . (٣) غير ان ملاحظة اوليرى تظل صادقة في اساسها . فالبدوى اكثر الناس واقعية . (٤) فهو لا يكترث بدين او يؤمن بحياة اخرى ايمانا عميقا . (٤) اما اساطيرهم وخرافاتهم فمحدودة ضيقة الافق . وقد ذكر موزل في حديثه عن الرولا ان هؤلاء يعتقدون ان العالم مقسوم الى قسمين : العالم المرئى والعالم غير المرئى ، وان العالم الثاني مزدحم بكائنات حية كما هو الحال في عالمنا هذا ... ثم اسهب كثيرا في ذكر اساطيرهم . (٥) غير انني اعتقد ان هذه الاساطير لا تنفذ الى اعماق نفوسهم ، وانما يتخذونها للعبث والتسلية .

واخيرا فان فكرة الوقت عند البدوى ضعيفة او تكاد تكون معدومة . (٦) فما دامت حياته على وتيرة واحدة سيان عنده اطال النهار ام قصر .

---

(١) Reginald H. Keirman, <u>The Unveiling of Arabia</u>, (London, 1937) p: 98
Zwemer. P: 264
يذكر ولستد (ص: ٢١٣) انه لم يضيع خلال اقامته بين البدو اتفه الاشياء . وكان يبحثون له عن الغرض المفقود بحماسة تفوقه اهتمامه هو

(٢) O'Leary. p: 20

(٣) A. Musil, <u>The Manners and Customs of the Rwala Bedouins</u>, (New York, 1928) p: 284

(٤) Ency. of Islam. Art. <u>Arabia, Ethnology</u>

(٥) انظر : Musil, <u>Manners</u> pp: 1-19

(٦) Muller . p: 179

هذه الصفات بتيجة للبيئة التي يعيشون فيها . فالمحاسن والمساوئ فرضتها ضرورات تلك البيئة . فالكرم هو نتيجة البؤس الذى يملأ حياتهم ، والشجاعة نتيجة تكتلهم القبلى الذى هو بدوره نتيجة لطبيعة بيئتهم . ومادية البدو وجفاؤهم وجحود عواطفهم — كل ذلك من فعل الحياة التي يحيونها . انهم صبورون لانهم لا يستطيعون غير ذلك . وهم يحبون اولادهم لانهم عون له في الحروب . وتجدهم اشد حدبا واكثر عطفا على بناتهم منهم على نسائهم لانهن يجلبن لهم الرزق والمال .

حتى اذا ياخذ البدوى باسباب الحضارة ويعتنق دينا ويهجر البيئة التي يعيش فيها فانه يغدو ارق طبعا واوسع خيالا وارقى مداركا . وهذا ما نلمسه في نهضة العرب حين اخذوا الاسلام دينا والحضارة حياة فاذا هم شعب راق يضرب في مناحى المعرفة بسهم وافر . نزع الاسلام من نفوسهم الواقعية والمادية واشاع فيها حب الخير والتوق الى الخيال وجعل فكرة الاخرة ابدا ماثلة في انفسهم .

واخيرا ،فانه لا يجوز ان نعد البدوى من الشعوب الراحلة للارتحال فقط التي تهيم على وجهها دون غاية . " انه يمثل احسن تكييف لحياة الانسان على شرائط الصحراء ... وان حياة الحل والترحال طريقة علمية للمعاش كالحياة الصناعية في ديترويت ومانشستر . "(١)

يقول لامنس " لا يمكن ان تخلط البدوى مع البربرى .. فاتجاهه الثابت ورقة اجوبته والسهولة التي يستقبل بها الاجنبي توحى الى المرء انه رجل مهذب راق (جنتلمان) ولو وضع في شروط ملائمة فانه قادر على اقتباس حضارتنا .. ان لغتهم كافية لان ~~نقيمهم~~ تقصيهم عن مصاف الشعوب المتوحشة ."(٢)

---

(١) Hittis p: 23

(٢) انظر ايضا : Lammens, Berceau pp: 186-187
Doughty. Vol. 1. pp: 368-369

الفـــصل الثـــالث

القبائل بين الحربين العالمتين (١٩١٤ و ١٩٣٩)

حين اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) حاول الاتراك اشهار حرب مقدسة ضد الحلفاء وزج العرب فيها واستغلال القبائل منهم خاصة في مقاومة الزحف المعادى . ولكن القبائل العربية ، والعرب عامة ، لم يكونوا على استعداد لخوض غمار القتال في شكل من الاشكال . وعلام يقحم البدو انفسهم في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ؟ فالوعي الديني عند البدو ضعيف لا يمكن استغلاله والاعتماد عليه في تحريض القبائل على الحرب . ثم ان مفهوم الولاء عند البدو لا يتجاوز نطاق القبيلة التي اليها ينتسبون ، وسيان لديهم انتصار الاتراك ام الانكليز ما داموا بحريتهم متمتعين ولتقاليدهم حافظين . فآثرت القبائل العربية الاحتفاظ بحيادها والوقوف من الحرب موقف المتفرج . ولكن بعض الرؤساء اضطروا الى مساندة الدولة مساندة شكلية موقتة . فلما طلبت الحكومة التركية من نوري الشعلان ، امير الرولا ، ان يسير الى مصر لمقاتلة الانكليز ، رفض الامير طلب الحكومة واعلن عدم استعداده لتقديم اية تضحية ملموسة الى الدولة : " دع الحكومة تفعل ما تريد . فلن اذهب الى البحر الميت ومصر مضحيا بقبيلتي في سبيل الحكومة . ان موطني هنا حيث تنزل قبيلة العنزة ، ولا اعرف غيره كي اذود عنه ".(١)

وكان يباعد ما بين الاتراك والقبائل شعور هذه القبائل ـ احيانا ـ باختلافهم عن الاتراك ونفورهم من محاربة اخوانهم العرب ـ الذين هبوا آنئذ يحطمون نير الاستعباد التركي وينادون بالتحرر والاستقلال ـ وان لم يرتفع ذلك الشعور الى مرتبة الوعي القومي . وقد قال الامير نوري الشعلان لموزل انه يستنكر طلب الحكومة لمساعدتها في قمع ثورة العرب : " وكيف نقتل اولاد العرب

---

(١) Musil, Deserta , pp: 438-439

لمصلحة الاتراك وهم اجانب عنا ؟ ليس عندنا عقل ان فعلنا ذلك . »(١)
بيد ان الدول لم تدع القبائل العربية على حيادها ،فكانت اساليب الدعاية والتضليل تعمل ناشطة في سبيل استغلال مواهب البدو العسكرية . فاستعمل الانكليز اشد الاساليب تاثيرا : الذهب . واحدث ظهور الذهب في المجتمع البدوى اضطرابا عظيما ،فجعل من كرامة البدوى وحريته موضعا للمساومة . ومن الصعب تعيين مبلغ ما فعله الذهب الانكليزى في افساد الخلق البدوى وتفسخ معنوياته . (٢) لقد مزق الذهب حياد البدو وحملهم على مساعدة الحلفاء . ولن نتعرض الى الدور الذى قامت به القبائل ،في سوريا وفي بلاد العرب عامة ،في شل حركة الجانب التركي وتمزيق شمله ،انما نشير الى ان البدو كانوا يؤلفون معظم جيش فيصل ،وكان رجال مججم بن مهيد في مقدمة فرسان الانكليز . (٣)

ثم وضعت الحرب اوزارها ،وجاء الافرنسيون الى هذه البلاد منتدبين من قبل عصبة الامم للاخذ بايدى البلاد الى معارج الرقي والنهوض،وكان الوضع القبلى انئذ - كما رايت - مضطربا اشد الاضطراب وعوامل النشاط تدب فيه من جديد ،فكان بامكان الدولة المنتدبة ان تضع حدا لذلك الاضطراب وتوجه النشاط وجهة صحيحة تتفق ونمو البلاد والرسالة التي جاؤوا بها مبشرين وعنها منافحين . فماذا فعلوا ؟ كانت الحدود بين سوريا والعراق غير واضحة تمام الوضوح ،لان الامبراطورية العثمانية كانت مقسمة على اساس ولايات لا على اساس اقطار،وكان سكان الحدود السورية العراقية يشتركون في حوامل موحدة كثيرة كاللهجة والتقاليد والاحتكاك المستمر- بحيث اصبح متعذرا على اولى الامر - عقيب انتهاء الحرب - فصل المناطق المشتركة وتعيين الحدود تعيينا واضحا . فعمدت فرنسا الى مداراة القبائل التي تشغل مناطق الحدود واسترضائها بشتى الوسائل كي تسجل انها سورية التابعية فتلحق اراضيها او مناطق نفوذها بالاراضي الواقعة تحت الانتداب الافرنسي . وحدث نظير

---

(١) Musil, Deserta. p: 429

(٢) Muhammed Fadhal Jamali, The New Iraq; Its Problem of Bedouin education. (New York, 1934) pp: 50-59

(٣) Muller. p: 318

هذا في مناطق الحدود السورية التركية . وعملت سياسة اللين والاسترضاء عملها
في نفوس القبائل الرحل - البدو - فتقربوا من السلطة المنتدبة واطمأنوا اليها -
اى انهم خضعوا لها . واثار هذا " العطف " المتبادل في نفوس القبائل نصف
الرحالة نيران الغيرة والحسد . فنشطت بدورها تريد ان تكون لها الخطوة في
نفوس الافرنسيين مظهرة استعدادها التام لموالاتهم و~~ساعدتهم~~ مساعدتهم وذلك دفعا
لسيطرة القبائل البدوية عليها وطمعا بما يقدمه الافرنسيون من منح وتسهيلات .
وهكذا فقد تم للافرنسيين السيطرة على القبائل بنوعيها . فكان بوسعهم ان
يسهلوا للبدو منهم سبيل التحضر ويعملوا على تحسين حالة القبائل نصف الرحالة
ولكن منطق الاستعمار قضى عليهم باتباع غير هذه السياسة اذ سرعان ما تبين اى
غرض يرمون اليه وراء استمالتهم للقبائل . لقد ارادوا ان يحدثوا ثلما في
جسم الامة او ان يزيدوا في الثلم الذى وجدوه اتساعا ويقيموا منه سلاحا
موجها ضد المجموع . رات السلطة الافرنسية ان تشرف اشرافا مباشرا على البدو
وهم المركز ~~الحاس~~ الحساس من الهيئة القبلية - فاحدثت سنة (١٩٢٠) دائرة خاصة تسيطر
على شؤونهم وتتصل مباشرة بالمفوضية الافرنسية وسنت قانون العشائر العام
واليك بعض ~~هذا~~ مواد القانون : تنص المادة الخامسة ان تسجيل البدو في سجل الاحوا
المدنية لا يفقدهم مطلقا صفتهم العشائرية - اى استقلالهم الذاتي عن كيان الدولة
وتركت المادة ٣٤ تعيين رؤساء العشائر الى المفوض السامي . ونصت المادة
٤٩ الا تمنح اراضي الدولة للقبائل الرحل الا بعد موافقة ضابط العشائر
الافرنسي . (١) وفي سنة ١٩٢٥ اصدر المفوض السامي قرارا رقم ~~١٠٠~~ S/100
يعطي فيه موظفي مصلحة العشائر الصلاحيات المطلقة لمعالجة شؤون البدو
ويمنح البدو استقلالا ذاتيا كاملا . (٢) ونص القرار رقم ١٩٦٠ الصادر في
٢٦ ايار سنة ١٩٢٨ على ان جميع الجرائم والمخالفات التي تحصل بين البدو
تحاكم وفق العرف البدوى واوامر رؤساء مصلحة الاستخبارات . اما الخصومات
التي تقع بين البدو من جهة وبين الحضر من جهة اخرى فتحل وفق القانون
العام غير انه اجيز للمشتكي في هذه الحالة ايضا ان يعرض شكواه امام لجنة عينها
القرار نفسه . (٣)

---

(١) Les Tribus Nomades et semi-Nomades des Etats placés sous Mandat Français (Haut Commissariat. Beyrouth, 1930) ~~Muller p: 169~~

(٢) Edmond Rabbath, L'evolution Politique de la Syrie sous Mandat Francais (Paris, 1928) p: 255

(٣) مأخوذ عن تقرير عصبة الامم لعام ١٩٢٨

يتبين لدينا ان السلطات الافرنسية كانت تولي الوضع القبلي حناية خاصة وانها كانت تسيطر على القبائل الرحل سيطرة تامة بحيث تقع المسؤولية عليها وحدها في عدم تنشيط حركة التحضر الطبيعية . كان الافرنسيون يبعثون بتقاريرهم السنوية الى عصبة الامم يدونون فيها اعمالهم " المجيدة " في دول الشرق المنتدبة ويفردون في كل تقرير فصلا خاصا عن البدو . وتقرأ في تقاريرهم هاتيك لهجة واحدة متكررة : ساعدت السلطة المنتدبة حركة التمصير وساد الامن الا حوادث متفرقة .. وقد يذكرون في بعض التقارير ان كذا من البدو قد تحضروا في عام كذا ، مثاله ما جاء في تقرير سنة ١٩٢٨ : " سمحت السلطات للكمصة (من السبعة) ان يمتلكوا ارضا كانت قبلئذ صحراوية . "

وفي تقرير ١٩٢٩ : " منعا للغزو اصدر المفوض السامي قرارا رقم ٢٦٦١ عام ١٩٢٨ يذكر فيه بمحظورية الغزو وان جميع وسائل النقل المستخدمة في الغزو تصادر من قبل السلطات ." وفي تقرير ١٩٣١ : " احدثت منظمات صحية متجولة مؤلفة من سيارة وطبيب وممرض مع المعدات اللازمة تقوم بالعناية باحوال البدو الصحية ولها مراكز اتصال في تدمر ودير الزور وحلب ... طالجت منظمة تدمر ثلاثماية حالة ومنظمة دير الزور مايتين ." وكانوا يعقدون المؤتمرات من حين لاخر لفض الخلاف بين البدو او تعديل العرف الشائع لدى البدو بشأن الغزو والقتال والمراعي وغير ذلك . ففي سنة ١٩٢٧ عقد مؤتمر سوري عراقي كبير في عانا من ٨ ـ ١٤ آذار ليتابع الاعمال التي بحثها في السابق مؤتمر القائم (نيسان ١٩٢٣) ودير الزور (حزيران ١٩٢٣) وابو كمال (ايلول ١٩٢٤) بشأن تنظيم المسائل المتعلقة بين شمر سوريا والغدطن والقبائل النصف المتحضرة في منطقة الدير ـ ابو كمال من جهة وبين شمرا العراق والعمارات والدليم من جهة اخرى ، ولم يسفر المؤتمر عن نتائج عملية ثابتة . وعقد مؤتمر كبير آخر في تدمر في ١١ تشرين الاول سنة ١٩٣٤ لتنظيم العلاقات بين بدو سوريا وبين بدو العراق وتوكيد الاتفاقات الحاصلة قبل ذلك التاريخ . ومع ذلك فقد كان نصيبه الفشل . لقد كانت غايات الافرنسيين واضحة ونواياهم ظاهرة تكشفها لنا اقوالهم وتصاريحهم . "دون الاخذ بالحكمة القديمة: "فرق تسد" نستطيع ان نقول انه ليس من مصلحتنا ايجاد بلاد متحدة كثيرا . يجب

ان يكون في وسعنا، في الوقت اللازم، تحريض فريق ضد الاخر....؟[1]
وجاء في كتاب اصدرته المفوضية الافرنسية ما يلي: "يجب ان نكون جد مقتنعين ان رحل سوريا مفيدون كنصف الرحل وان تمصيرهم يخلق مشاق اكثر من حسنات".[2]

لقد كان السوريون في كفاح مستمر وغليان شديد ضد الانتداب الافرنسي. واتخذ الافرنسيون تلك الخطة حيال البدو للحد من نشاط هذا الكفاح وتقليل اهميته. اذا ان بقاء جزء كبير من الامة بمعزل عن الحياة العامة يؤخر سيرها التقدمي ويجعل جهادها القومي عرضة للتفسخ و~~الهزء~~ الوهن. فكيف اذا كان هذا الجزء نشيطا يستغل ضد الحركات الوطنية. ان قوة المدن المسلحة ضئيلة بينما كانت يد القبائل مطلقة في التسلح. ولذلك فقد ظلت الحركات الوطنية مشلولة بسبب موقف القبائل منها موقفا اقل ما يقال فيه انه غير مشجع. فكانت القبائل نقمة على الجهاد الوطني وكان تاريخها لطخة عار في جبين الانتداب الافرنسي. وحسبك دلالة على صحة ما نقول ان تقارن وضع القبائل في سوريا مع ما هو عليه في العراق. فالعراك المسلح في العراق ضد النفوذ البريطاني كان يقوم على اكتاف العشائر، وكان اشتراك السياسيين الحضريين ينحصر في ترتيبه وتوجيهه فحسب. واننا نجد ان معظم المتطرفين وكبار الوطنيين في العراق هم من شيوخ العشائر وانهم كانوا دوما مبعث الحماس الوطني ودعامة الجهاد القومي. اما في سوريا فيندر التطرف عند شيوخ القبائل لانه تندر فيهم الوطنية. ولولا الحياة من زعماء السياسة الحضريين ورغبتهم في مجاراة التيار العام حيث ما اتجه لما نادى احدهم بالوطنية ولا سار وفق مراميها والفرق بين الوضع هنا في سوريا وبين الوضع في العراق ناجم عن الفرق بين خطة الفرنسيين في سوريا وخطة البريطانيين هناك.

وكان الافرنسيون يعملون على تحريض البدو ضد القبائل نصف الرحل وهذه ضد تلك وقد حذر مولر من تمصير القبائل نصف الرحل تمصيرا تاما وذلك ليظلوا أداة شغب ضد البدو (p.140) فظل الغزو والقتال صناعة القبائل وشغلها

---

(1) Muller p: ~~140~~ 159

~~(2) Muller p: 161~~

(2) Les Tribus Nomades de l'Etat de Syrie (Delegation Generale de la France Combattante. Beyrouth, 1943)

الشاغل ، وظلت قرارات المفوض السامي بشان منع الغزو حبرا على ورق ، وما ذلك الا لانهم لم يرغبوا رغبة صادقة في منع الغزو .

" من الخطأ سن القوانين لمنع الغزو ... انها سياسة جديدة ليس من صالحنا انتهاجها ".(١) وكانوا يعمدون احيانا الى سياسة تجزئ القبيلة وتوزيع المسؤولية على رؤساء متعددين ليسهل عليهم توجيهها وقيادتها ، كما حدث مثلا عام ١٩٣٥ في عشيرة السبعة ، اذ اصدر المفوض السامي قرارا لم يعد فيه رئيس السبعة مسؤولا عن عشيرته ، بل اعتبر كل مختار مسؤولا عن فرقة امام السلطة المنتدبة مباشرة .(٢)

لقد كانت اتصالات القبائل بالافرنسيين اكثر من اتصالاتها بالحكومة المحلية وكان الافرنسيون يقدمون لهم شتى المساعدات والتسهيلات حتى ولو كان ذلك ضد مصالح الدولة السورية ، كأن تصادر السلطات السورية من نفر من القبائل اشياء محظور حيازتها او تعقب المجرمين وتزجهم في السجن ، فتتدخل ~~السلطة~~ السلطة الافرنسية لابطال تصرفات السلطات السورية ومساعدة القبائل . فاعطوهم دروسا عملية في احتقار كل حكومة تقوم من ابناء البلاد واحترام الحكم الاجنبي مهما كان لونه . فصار البدوى ينظر باستخفاف وازدراء الى الحكم المحلي لانه لم يخفهم ولم يستطع لهم نفعا ولا ضرا . واثرت اتصالاته المتعددة بالضباط الافرنسيين في خلقه فافسدته وبذرت فيه بذور النفاق والرياء . ثم ان السلطات الافرنسية كانت ترمي من ابقاء الوضع القبلي على تأخره وفساده لتبرر وجودها في البلاد امام العالم الخارجي . فكانت تعكس حالة القبائل الى الاوساط الدولية والمنتديات السياسية ، تصورهم بصور الاقوام المتوحشة الاولى وتدلل بالاصلاحات التي تقوم بها تجاههم . ويؤخذ الرأى العام الدولي بهذا التمويه فيرجع صداه معتبرا الشعب الذى يحوى هذه القبائل شعبا قاصرا يستحق الانتداب والوصاية بل الاستعمار ، وان الشعب الذى يصطدم به النفوذ الافرنسي من حين الى آخر ان هو شعب مصطنع تثيره فئة قليلة تسخرها مطامع شخصية او دول اجنبية تريد الحلول محل فرنسا في البلاد . وكانت عبارات الثناء والمديح على فرنسا تتجاوب

---

(١) Muller p: 161

(٢) جاء ذلك في تقرير عصبة الامم عام ١٩٣٥

في الاوساط الدولية لتعهدها هذا الشعب القاصر وتحملها المتاعب والمشاق في سبيل تمدينه وترقيته.

التمدينية

تلك هي رسالتهم "التمدنية" من ناحية الوضع القبلي في البلاد: وتتلخص في انهم كانوا يريدون ايجاد فئة منشقة عن كيان البلاد كي يبرروا بقاءهم في البلاد باسم حمايتها كما يفعلون بالنسبة الى الاقليات العنصرية والدينية،حتى اذا نالت البلاد استقلالها تنفصل هذه الفئات عن جسم الامة لتؤلف مناطق مستقلة ترتبط مباشرة بالدولة الافرنسية.(١)

وظلت الامور كذلك حتى قيام الحرب العالمية الثانية وتقلص نفوذ فرنسا الادبي في البلاد،اذ اخذت موجة النفوذ البريطاني تطغي ثانية على سوريا. وظهر الذهب الانكليزي يقوم بدوره، فكان ابو حنيك (القائد .كلوب) يغدق الاعطيات والمنح الى رؤساء القبائل يحرضها ضد الافرنسيين الفيشيين. فلما تم النصر لبريطانيا راحت القبائل تنصرف من احضان الافرنسيين الى احضان البريطانيين او تتموجج بين هؤلاء واولئك. فلما اخذت البلاد باسباب الاستقلال وانقشع الانتداب الافرنسي وانتقلت مسؤوليات الحكم الى ايدى الحكم الوطني، انتقلت معها مصلحة العشائر فاصبحت مصلحة وطنية.

بيد ان الحكومة الوطنية وجدت نفسها امام مشكلة عويصة، فالثغرة التي احدثها الانتداب الافرنسي في كيان الامة خلال ربع قرن كانت عظيمة والتربية التي غرسها الانتداب في نفوس القبائل مستهدفة الاستخفاف بالمثل الوطنية وازدراء الحكم الوطني كانت قوية متمكنة في النفوس ... زد على ذلك كله ان المصلحة لا يزال يعوزها التنظيم .ويقوم على ادارتها. موظفون لا يحيطون كثيرا بمشاكل القبائل واحوالهم فيعرف كيف تعالج الامور. وقد قام اخيرا تحت قبة البرلمان من ينادى بالغاء هذه المصلحة وربط العشائر

---

(١) انظر الفصل الاخير من كتاب مولر عن علاقة البدو بفرنسا، يقول فيه ان اندماج البدو بالدولة السورية امر مستحيل وان البدو ينظرون نحو فرنسا نظرة هيبة واحترام- هي نتيجة القصص والاساطير المتداولة عندهم عن حروب الصليبيين حين اظهر الافرنج بطولة تدعو الى الاكبار والتقدير ثم انتصار فرنسا في الحروب العالمية. ويرتاى مولر فصل الصحراء السورية بما فيها منطقة الفرات عن سوريا وايجاد جمهورية فيها ترتبط بفرنسا الام مباشرة.

ربطا مباشرا بجهاز الدولة باعتبار ان بقاءها يشجع على بقاء الهوة التي تفصل القبائل عن الوطن الام. ولنا عودة الى هذا الامر في الفصل عن تمصير القبائل.

تقسيم القبائل الى رحل ونصف رحل

كانت المهاجرات المستمرة المتتالية من الجزيرة الى سوريا يتألف معظمها من القبائل الرحّل، اى من البدو، فينزلون بادية الشام محتفظين باستقلالهم وعيشهم القديم. غير ان اسباب الرقي والتطور كانت ابدا تغزو حياتهم البدوية وتفت من كيانهم الاستقلالي فتجتذب من حين الى آخر قسما منهم الى حياة المدن، وقد يتم ذلك بفعل ضغط هجرة قوية جديدة تنازع قبيلة ما على منطقة نفوذها وتغلبها على امرها فتتجه القبيلة المغلوبة الى حياة المدن. وهكذا فقد اندمجت تلك القبائل المتحضرة في سكان المدن وضاعت عصبيتهم وتكيفت تقاليدهم تبعا لمقتضيات الحضارة. اما الذين لم يتيسر لهم بعد التحضر الصحيح فهم الذين يؤلفون المجتمع القبلي او النظام القبلي في سوريا. وهم يؤلفون زهاء عشر سكان البلاد ويتفاوتون في درجة تحضرهم وبداوتهم. فمنهم من يملك الاراضي الزراعية ويقوم على فلاحتها وزرعها، فكان فعل التحضر فيهم اقدم واشمل. ومنهم من لا يزال يتمرجح بين البداوة والتحضر ومنهم الرحّالة الممعنون في بداوتهم. فالقبائل السورية، اذاً، تنحصر في ثلاثة انواع: القبائل نصف الثابتة كالعكيدات والبقارة والقبائل نصف الرحّالة كالموالي والحديديين، والرحّل: شمر وعنزة. والرحل هم الذين يمثلون الحياة القبلية اصدق تمثيل، وعليهم تنطبق ميزات القبيلة التي ذكرناها، فلا يصح اطلاق لفظ البدو على غيرهم. اما القبائل الاخرى فقد انحرفت عن حياة البداوة فتأثرت تقاليدها بهذا الانحراف وتكيفت مفاهيمها الاخلاقية والاجتماعية بعض التكيف فشملها قانون الدولة، وكانت مشكلتها اخف وطأة وايسر متناولا من مشكلة الرحّل. يترتب على هذا التمييز الاساسي حصر الحديث عن البدو مكتفين بافراد فصل واحد عن القبائل نصف الثابتة والقبائل نصف الرحّل، مع العلم ان الكلام عن البدو يشمل هذه القبائل بمقدار ما هي قريبة من حالة البداوة. الفرق بين البدو وبين القبائل الاخرى هو ان البدو ذوو حل وترحال يتقلبون في المجالات ويوسعون ايغالا في القفار اكثر من الآخرين. والبدو لا يتقيدون بقانون الدولة، بل لهم عرفهم الخاص يتقاضون به بعيدين عن اى تأثير خارجي، اما الاخرون فيشملهم قانون الدولة

وتطالهم يد السلطات (لا بعض القبائل اخرى) ثم ان الرئاسة عند البدو تنحصر في بيوت معينة قليلة، اى ان تماسك العشيرة قوى متين بالنسبة الى ما هو عليه عند الاخرين حيث يكثرالتجزء وتتعدد بيوت الرئاسة. هذا فضلا عن اختلاف المزايا النفسية والخلقية عند الطرفين، اذا ان البدو اعف نفسا واصدق لسانا وامضى عزيمة من الفريق الثاني. والبدوى ينظر الى القبائل الاخرى باحتقار وازدراء. وكان اغلب هذه القبائل الى زمن قريب يؤدون له الجزية وهم صاغرون دفعا لبطشه واعتداءته. وكانت هذه القبائل تنتسب الى القبائل البدوية انتسابا بالحلف والموالاة ويعني هذا ارتباطها بالعشائر البدوية وتضامنها معها تضامنا يصبح مع مرور الزمن واجب التنفيذ. فكانت مثلا عشيرة الجبور والبقارة وطي وسائر عشائر الاكراد في الجزيرة شمرية وكانت عشيرة العكيدات والعشائر النازلة بقرب عنزة غنزية. وسبب احتقار البدو للعشائر الاخرى ليس لكونهم غير عرب كما يريد مولر ان يقول [1]، انما هو ناجم عن اسباب اخرى اهمها ان البدوى ينظر دوما باحتقار نحو المدينة واهل الحضر عامة، فاذا كان اهل الحضر لا يزالون مزارعين فيكونون اقرب اليه متناولا واسهل فتكا. ثم ان البدو لكثرة تنقلهم وخفة متاعهم وتضامنهم وتعودهم حياة القتل والقتال اشجع وافتك من الاخرين. زد على ذلك كله ان البدوى معفي من سيطرة الحكومة مستمتع بحريته واستقلاله، اما الفرد من القبائل الاخرى فيخضع للقانون العام وهو مقيد بمزرعته او ماشيته مثقل بالديون والضرائب فكان أقل اعتدادا بنفسه من البدوى.

---

(١) Muller. p: 101

الفصل الرابع

القبائل نصف الرحل ونصف الثابتة

اطلقنا كلمة بدو على شمر وعنزة وقلنا ان البدو هم الذين يمثلون الحياة العربية تمثيلا صحيحا وعليهم وحدهم تنطبق مميزات النظام القبلي العربي ،اما القبائل الاخرى فيتفاوت فيها وجود هذه المميزات بحسب بعدها من حياة البداوة وتاثرها بالحضارة • وقد قسمنا هذه القبائل الى فئتين بالنسبة الى درجة اتصالها بالحياة البدوية : نصف الرحالة وهي التي تكون فيها عوامل البداوة اشد تاثيرا من عوامل الحضارة ،ونصف الثابتة وهي التي تكون فيها حياة التحضر غالبة على حياة البداوة • ان هذا التقسيم شكلي بحت ،لجأنا اليه رغبة في التسهيل ،اذ لا يمكن وضع حد فاصل بين ما نسميها القبائل نصف الرحالة وبين نصف الثابتة • فاسباب التحضر تتفاعل في حياة الناس بنسب متفاوتة ،ومن الصعب تعيين مبلغ ذلك التفاعل في قبيلة ما • ولكننا نستطيع ان نسجل بعض الفروق الموجودة بين هاتين الفئتين من القبائل كالقول ان درجة التضامن والتماسك في الفئة الاولى (نصف الرحل) اقوى منها في الفئة الثانية ،وان نصف الرحل قليلة العناية بالزراعة وفلاحة الاراضي وتعتمد في معاشها على تربية الابل والمواشي كما هو الحال عند البدو • ثم ان حرصهم على التمسك باستقلالهم الذاتي وتقاليدهم القبلية اشد مما هو عليه عند الفئة الثانية • وقد اعفتهم السلطات من القانون المدني العام والحقتهم بقانون العشائر

١ ـ القبائل النصف الرحالة

الموالي [١] : ينزل معظمهم في المنطقة الواقعة بين حماة ومعرة النعمان على جانبي الخط الحديدي ،والباقي موزع حول حماة وقضائي المعرة وسلمية • لا يعرف اصلهم وهناك اساطير متضاربة حول اصل القبيلة لا يستطيع المحقق ان يركن الى واحدة

---

(١) انظر :

Muller. 124 - 125

والكتابين الصادرين عن المفوضية الافرنسية المشار اليهما آنفا

منها (١) . على ان المتفق عليه ان رؤساءهم يتحدرون من اصل نبيل وان سواد القبيلة من اصل وضيع او غامض. والموالي من اقوى القبائل شكيمة واشدها جبروتا وتاريخها سلسلة غارات وحروب وثورات. دخلوا في حروب دموية مع الحديديين عام ١٩٢٢ دامت ثلاثة اعوام. وفي سنة ١٩٢٥ اشتركوا في الثورة السورية فقذفتهم الطائرات الافرنسية في ربيع ١٩٢٦ حين عودتهم من الصحراء. وكان الافرنسيون تضطرون الى ارسال قوة مسلحة كل عام الى منطقة الحمدانية خشية اعتداءاتهم.

ينقسمون الى قسمين : الشماليين برأسهم الامير الشايش عبد الكريم وهذا له سطوة على القبيلة باسرها ويعدون نحو ١٣٠٠ بيتا . والجبليين برأسهم عبد الابراهيم باشا وعددهم نحو ٦٠٠ بيتا . فيكون عدد مجموع القبيلة نحو الفي بيت اى زهاء عشرة آلاف نسمة . يوغلون في البادية شتاء الى الجنوب الشرقي من تدمر. حالتهم الاقتصادية سيئة بالنسبة الى القبائل الآخرى وذلك لاشتغالهم في الحروب والغارات. وهم يعتمدون عليها في كسب قوتهم.

<u>الحديديون</u> : يعدون من قبائل بادية حلب . مواطنهم تقع في المناطق الشرقية من قضاء المعره والمنطقة الشرقية الشمالية من حماه في منطقة الحمراء. وفي الشتاء يتوغلون في الحماد حول تدمر. لا يعرف اصلهم تماما، ولكن الثابت انهم عرب. كانت مواطنهم في القديم اكثر الى الشمال وكانوا في بادئ الامر تحت نفوذ الموالي. ولكنهم اخذوا يشعرون بحاجتهم الى الاستقلال الذاتي . فلما مات حمد العباس امير الموالي وخلفه حمد الخرفان ثار الحديديون عليه واخذوا استقلالهم وانفصلوا عن الموالي. ولا يزالون في حروب متواصلة مع الموالي حتى يومنا هذا. وقد عقد صلح بين الطرفين عام ١٩٤٢. ولكنه لا يمكن ان يقضي على الحزازات بين القبيلتين قضاء تاما.

وتعد هذه القبيلة من اهم القبائل السورية لحالتها الاقتصادية وعددها. فهم يعنون بتربية الاغنام والمواشي عموما ومشهورون بالسمن النظيف . ويبلغ

---

(١) تقول اسطورة شهيرة ان احد المتحدرين من خلفاء بني امية ذهب الى الاستانه في منتصف القرن السادس عشر يشتكي الى السلطان سوء حالته وجور الزمان عليه فتأثر السلطان واراد ان يجعله اميرا فجمع له عبيدا كثيرين في سهول حمص وحماه ونصبه اميرا عليهم. وتقول اسطورة اخرى ان احد المتحدرين من بني العباس جاء من بغداد وتجمع حوله لصوص من اكراد وترك وعرب والفوا قبيلة الموالي .

عددهم نحو ثلاثة الاف بيت يعني ١٥٠٠٠ نسمة. يرأسهم ويمثلهم في المجلس النيابي نواف الصالح . ينقسمون الى ثلاثة اقسام تكاد تؤلف عشائر مستقلة وهي : الغناطسة ويرأسهم محمد الصفوق الرجو، والكومة ويرأسهم نواف الصالح، ثم البو حسن والجملان.

طيء : تشغل هذه القبيلة ضفاف جغجغ الاعلى على الحدود التركية والاراضي التي تقع حول ما يتفرع عن جغجغ من نهيرات وسيول والرقعة التي تشغلها القبيلة ضيقة لذلك كانت مكتظة بالسكان. وجميع هذه الاراضي مسقوية خصبة تعود خيراتها الى القبيلة. وفي الشتاء يذهب معظمهم الى الجنوب والجنوب الشرقي حتى جبل سنجار. يقدر المطلعون عدد نفوس القبيلة بخمسة وعشرين الف نسمة. ينتسب بيت الرئاسة فيها الى قبيلة طيء المشهورة في التاريخ . ونسبهم هذا هو الذى اعطى للقبيلة بمجموعها اسم طيء. اما سواد القبيلة فلعله يرجع الى اصل يماني كما يقول مولر او لعله مزيج من الفرق الصغيرة. وبيت الرئاسة في هذه القبيلة يتمتع بمكانة كبرى لدى جميع قبائل العرب، ورئيسهم يعد نفسه من نسل حاتم الطائي . ومكانة هذا البيت جعلته يأنف من دفع الخوة الى آل محمد رؤساء شمر. وآل المحمد لا يتزاوجون مع احد من القبائل نصف الرحالة الا من رؤساء طيء. وقد زوج فارس الجرباء ابنه صفوق من ابنة شيخ طيء. بيد ان بيت الرئاسة اخذ يفقد بعض نفوذه في القبيلة وذلك لعدم تمكنه من التطور ومسايرة الاحوال الطارئة ثم لجوره وجبروته في القبيلة. اضف الى ذلك ان هنالك رؤساء اخرين جديرين بتولي الرئاسة (١) . غير ان تأييد القبيلة العفوى لبيت الرئاسة التقليدى وخضوعها اللا شعورى لنفوذه يحول بينها وبين التعبير الا عن استيائها تعبيرا واضحا. وتضعضع نفوذ بيت الرئاسة كان احدى العوامل التي اضعفت مركز القبيلة لدى القبائل الاخرى . فقد كان لطيء سطوة على المناطق المجاورة مثل بعض الاكراد، ولكنها زالت اليوم هذه السطوة. وشيخ طيء هو الشيخ الثاني في الجزيرة الذى يتقاضى راتبا من الخزينة، اما الاول فهو شيخ الجبور. لا يمثل طيء نائب في المجلس النيابي بالرغم من كثرة عددها ونفوذها، وقد صوتوا لحضرى من القامشلي .

---

(١) من اشهر هؤلاء عبد الرزاق الحسو الذى اخذ يتكيف وفق التطورات الجديدة ويزداد نفوذه.

بني خالد : يقولون عن انفسهم انهم ينتمون الى بني مخزوم ويحتزون بخالد بن الوليد البطل الشهير. ويقول مولر ان لهم صلة قرابة لعشائر عنزة. جاءوا سوريا في اواخر القرن السابع عشر واصطدموا بالموالي في منطقة حمص. وقد كانوا قبيلة مشهورة قوية البأس كثيرة العدد. ولكن تقلص نفوذهم وقل عددهم. وتوجد فرقة منهم اليوم في شرقي الاردن. وهم يظهرون ميلا ظاهرا نحو الاقامة. منطقة نفوذهم تقع بين حمص وحماه. وتمتلك القبيلة قرى عديدة ولكنها ملك لفرقة واحدة هي الناصر. يصيفون حول قرى سلمية الجنوبية وقرى حمص الشرقية الشمالية وفي الشتاء يتركون افرادا قليلين في القرى وينهبون نحو الجنوب من تدمر. يعدون نحوا من سبع مائة بيت اى ٣٥٠٠ نسمة. يرأسهم محمد العبد الكريم باشا. يعطون اصواتهم للسبعة ويمثلهم رئيس السبعة راكان بن مرشد. ينقسمون الى اقسام عديدة وينتمي بيت الرئاسة الى فرقة الناصر.

الفواعرة : في منطقة حمص. ويقال انهم يتحدرون في الاصل من الموالي. يصيفون شرقي حمص. يرأسهم فدعوس الرمضان. وهم في عداء مستمر مع السبعة ومع بني خالد.

البو خميس: اصلهم من الدليم في العراق. يقول مولر انهم كانوا قبائل نصف ثابتة تعيش في وادى الفرات وان متصرفي الدير قذفوهم الى حياة البداوة منذ نحو خمسين عاما. يصيفون في منطقة ابو بكر الى الشمال من دير حافر (شرقي حلب) وفي قضاء منبج حيث يملكون بعض الاراضي ويشتون احيانا في جبل البشرى مع البوسرايا. وهم تحت نفوذ مجحم والولد. يعدون نحو ثلاثمائة بيت.

العمور : اصلهم من نجد. جاءوا في اواخر القرن الثامن عشر واقاموا بين حماه وسلمية واصطدموا بالحسنة. وكانوا في القديم قبيلة قوية الشكيمة عزيزة المقام ولكنهم تفككوا وطمع فيهم الغير. وقد بقي من اقسامهم البو حرب والبو خرسان في جبل العمور الى الشمال من تدمر وفي المنطقة شمال غربي مسكنة.

٢ ـ القبائل نصف الثابتة ٠٠

تقوم هذه القبائل على زراعة الاراضي وتلتصق بها ولكنها تعتني بالمواشي كمورد ثاني من موارد الرزق ٠ فتقوم جماعة بزراعة الاراضي وتنصرف اخرى الى رعي الماشية٠ وقد تشتغل الجماعة نفسها في الزراعة ورعي الماشية في آن واحد، اذ تترك مواشيها على مسافة قليلة من مزارعها مع بضع رعاة٠ وينصرف الباقي الى الزراعة٠ واراضيهم تحتاج الى عناية مستمرة بسبب فساد وسائل الري ومواشيهم الى رعاية يقظة ساهرة خوفا من اعتدآت البدو وبطشهم، فضلا عن ان معظمهم يرزحون تحت عبء الديون والضرائب والادارة الحكومية الفاسدة٠ ويسكن اكثرهم في الصبابيط (ج: صيباط) وهي سقائف من اغصان الشجر، وتكون هذه الصبابيط قريبة من مواضع الماء ورطبة، فاذا جاء الربيع وكادت الامطار ان تنزل استبدلوها بالخيام غير ان البيوت الحجرية اخذت تنتشر انتشارا سريعا، وقد لا يمضي وقت طويل حتى تكون كل مساكن هذه القبائل من هذا النوع٠ ونحن نعرض هنا اشهر القبائل واعظمها اهمية :

العكيدات : المشهور ان هذه القبيلة تنتسب الى بجيلة من كهلان ، وليس من سند علمي يؤيد ذلك او ينقضه٠ وتعرف هذه القبيلة نفسها انها قحطانية الاصل من زبيد٠ واكثر القحطانيين كانوا ينتسبون الى زبيد بالتغليب لان زبيد كان لها شأن ومكانة٠ وتكاد تكون قبيلة العكيدات اكبر القبائل السورية عددا واوسعها مساحة٠ اذ تعد هذه القبيلة اكثر من عشرة الاف بيت او نحو خمسين الف نسمة٠ وتشغل ضفة الفرات اليمنى من التبني (التي تبعد اربعين كيلو مترا غربي دير الزور) الى ابو كمال (التي تبعد ١٣٠ كيلو مترا عن دير الزور) ومجموع هذا الخط ٤٠ + ١٣٠ = ١٧٠ كيلو مترا٠ وتشغل الضفة اليسرى من نقطة تبعد عن دير الزور شرقا بعشر كيلو مترات حتى الحدود العراقية٠ وطول الخط ١٢٠ كيلو متر٠ يضاف الى ذلك من مصب نهر الخابور على الفرات بموقع البصيرة حتى سبعين كيلو مترا شمالا على الخابور من ضفتي اليسرى واليمنى بموقع يسمى " المرقده" وقد تسرب قسم منهم قليل الى الشمال من هذه النقطة٠ هذه المساحة الواسعة التي تشغلها العكيدات يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ٠ والواقع ان العكيدات ليسوا قبيلة واحدة ذات اصل واحد٠ بل ان هنالك خليطا كثيرا ليس من العكيدات اصلا وانما ضمتهم العشيرة بالمساكنة والمحالفة فصاروا منها٠

ويكثر فيها التفكك والانشقاق . وقد تألفت جماعات عديدة كل منها تمارس شؤونها منفردة ولا تخضع للرئاسة الحاكمة الا خضوعا شكليا بسيطا . وتنقسم عشيرة العكيدات الى قسمين كبيرين هما البو كمال والبو كامل . ولعل هذين القسمين هما اللذان يؤلفان صميم العكيدات، وخلاف هذين القسمين فان هناك بطونا كثيرة يرجع انها انضمت الى العكيدات بالحلف وصارت بمرور الزمن منها، وهي تحفظ انسابها من غير العكيدات. اما البو كامل فهم البطون الاتية : البو كامل ، والبكير، وبعض النسابين يدخلون معهما الشويط. اما البو كمال فيتفرعون الى الفروع التالية : الحسون ، الدميم، ويدخل بعض العارفين عشيرة البو فريح . اما عشيرة الشعيطات فيعتبرونها من اخ ثالث لكامل هو زامل .

تلك هي الفروع الاصلية لعشيرة العكيدات . اما العشائر الاخرى التي تنتسب اليها حلفا فاشهرها البو سرايا اللذين يشغلون الضفة اليمنى للفرات غربي دير الزور ، كما يوجد قسم منهم غربي الميادين وينتسبون الى اصل شمري ، الصائح . وهؤلاء دخلت فيهم المدنية نسبيا فبيوتهم نظيفة وطعامهم نظيف والسمن لديهم من اجود الانواع. وهم يؤلفون كتلة مستقلة تمام الاستقلال عن العكيدات ويندر ان يشتركوا في غزو او قتال مع العكيدات . كانت الرئاسة في بيت الشلاش . واعطاها الافرنسيون الى فياض الناصر وانتقلت الى ابنه احمد الفياض . وكان الرئيس المذكور، الى عهد قريب ، يسوم الناس الجور والخسف. ولكن تزلفه للافرنسيين وتأييدهم اياه كانا كافيين لاسكات كل تذمر ورد اية شكوى . ولا يزال آل الشلاش يتمتعون بنفوذهم القديم في العشيرة.

وشرقي دير الزور يسكن البو خابور، وهم على دعواهم من عشيرة العمارات العنزية التابعة للحكومة العراقية اليوم ولكنهم ينتسبون الى العكيدات حلفا . وهم اصحاب فلاحة وزراعة وذوو شكيمة ومضاء. والى الشرق من هذه العشيرة تسكن عشيرة البو ليل، وهم على الارجح من حمير. ومن العشائر التي اختلف العارفون في الحاقها الى العكيدات عشيرة الثلث. ويقال ان تسميتهم كذلك لانهم كانوا من قبل ثلث العكيدات. ويرجع كثير من عارفيهم نسبهم الى قبيلة عبدة الشمرية التابعة للعراق اليوم. ولعل هذا الولع بالانتماء الى القبائل البدوية مرده الى ما كانت تتمتع به هذه القبائل من قوة وسلطان. ويأتي بعد هذه العشائر الشعيقات ثم المجاودة ثم البقعان.

كانت رئاسة العكيدات في العهد التركي منحصرة في بيتين : الهفل والجراح . فكان يرأس البو كامل هفل العبد الله ويرأس البو كمال عبد الله الحسين الجراح . الا ان بعض البيوت ما لبثت ان اخذت تنافس هذين البيتين على الرئاسة كآل الدندل الذين يرأسون اليوم البو كمال بالاضافة الى آل الجراح . وكذلك فقد ظهر في عشيرة الشلث عبد الكريم باشا النجرس فشاخ في البو كامل . ولم يعزل هفل فصار هنا ايضا شيخان . غير ان بيت الهفل لا يزال يتمتع بالمكانة الاولى بين البيوت الاربعة المذكورة . وفي مجلس النواب نائبان من العكيدات عن قضاء الميادين هما عبود الهفل وتركي النجرس . وقد قامت بين العكيدات وشمر اصطدامات عنيفة في السنة الفائته ادت الى وقوع قتلى كثيرين من العكيدات بالنسبة الى خسائر شمر، وما ذلك الا لفقدان التضامن عندهم وانعدام وحدة القيادة . وقد عقد مؤتمر للصلح في بغداد في العام الماضي ، ولكن اسباب الخصام لا تزال قائمة حتى يومنا هذا، اذ انها ترجع الى تزاحم العشيرتين على السيطرة والسيادة .

البقارة : لا نعرف السبب في تسميتها كذلك ، لانه لو كانت التسمية نسبة الى تربية الابقار واقتنائها لكانت في بعض القبائل الاخرى ~~منهمفلحق~~ من هي احق بهذه التسمية . فضلا عن ان العرب لا ينتمون الى المهنة لانها مضيعة لانسابهم وعصبيتهم . وعشيرة البقارة اقرب الى نصف الرحل منها الى نصف الثابتة . وهي تشغل ضفة الفرات اليسرى من نقطة غربي دير الزور ~~بثلاثين كيلو مترات~~ بثمانين كيلومترا تقريبا حتى البصيرة غربا التي تبعد عن دير الزور اكثر من عشر كيلومترات . ويرجع رؤسائها نسب العشيرة الى زبيد . ولعلها مجموعة عشائر قحطانية متفرقة وقد يكون فيها بعض العدنانية . هذه القبيلة من اكثر القبائل اقتصادا باهل دير الزور . ويوجد من اهالي الدير عدد كبير يدعي الانتماء اليها وتشترك القبيلة بالانتخابات النيابية مع دير الزور . وقد فاز للمرة الاولى شيخ من مشايخهم في النيابة وهو راغب بن حمود البشير . وتعنى البقارة بتربية المواشي اكثر من عنايتها بالزراعة على خلاف العكيدات الذين يعنون بالزراعة . ويبلغ عدد البقارة نحو ثلاثين الف نسمة تقريبا . وتنقسم البقارة الى قسمين كبيرين العابد والعبيد ، وعن كل قسم تتفرق بطون اخرى عديدة . فمن العابد البو عرب والخنجر والرفيع والراشد وآل حمد العابد والجاسم العابد والعبد الجادر . ورئاسة البقارة هي في البو عرب في بيت ابن جابر . واشهر بطون

العبيد : البو مصعة ، الهولامية ، المناصرة، العلي، الجاسم العبيد . ورئاستهم في بطن البو مصعة في بيت سلمان المصعاوى. وهو يأتي بعد بيت ابن جابر من حيث النفوذ والشهرة. وهناك بطون اخرى بالاضافة الى العابد والعبيد تنتسب الى البقارة حلفا واشمرها البو سلطان الذين يتفرعون الى ثلاثة فروع: البو صالح والبو رحمة والبو شمس. ثم البو حمدان، والبو شيخ ، والبو معيش، والبو حسن والمشهور، والعبد الكريم، والبو بدران. ويدعي البو بدران انهم هاشميون (وقد ذكر هذا مؤلف تاريخ الموصل بدون تأكيد) .

وقد نزحت جماعات كثيرة من البقارة الى الجزيرة وكان لها حظ عظيم من الثروة والمكانة. واحوال البقارة الاقتصادية على الاجمال جيدة وذلك لانهم اصحاب جد وعمل . وهم يعتنون بالاغنام على قاعدة الشركات مع اهل الحضر، اى ان يأخذ الفرد منهم مقدارا من الغنم من احد تجار البلدة ويدفع اثمانها من حاصل هذه الاغنام خلال ثلاث سنوات من صوفها وخرافها وسمنها، وبعد تسديد المبلغ تصبح الاغنام مناصفة بينه وبين التاجر صاحب رأس المال. وهذا النوع من الشركات قليل الاستعمال العكيدات بالنسبة الى البقارة.

يرأس البقارة اليوم شيخ واحد هو اسعد البشير ولا ينازعه في مكانته لدى الحكومة منازع. وتوجد بيوت اخرى لا تقل عن هذا البيت اهمية من حيث القوة والمكانة في البادية كعبد الله المصعاوى، غير ان جميع الرؤساء يعترفون بالاسبقية لاسعد البشير ويأتمرون بامره في الامور العامة. فدرجة التضامن عند البقارة اقوى واعظم منها عند العكيدات. والمشهور عن الفرد البقارى انه اقل طغيانا واعتداء على الحضريين في حالة الفوضى واختلال الامن من الفرد العكيدى. ولكنه مشهور بالسرقة واللصوصية.

البو شعبان : تشغل هذه العشيرة ضفة الفرات اليمنى على نقطة تبعد نحو خمسين كيلومترا عن دير الزور غربا وعلى ضفته اليسرى على بعد خمسة وسبعين كيلو مترا غربا . وتمتد منازلهم حتى محافظة حلب من جهة قضائي منبج والباب . ويوجد قسم ضئيل منهم في قضائي اعزاز وجبل سمعان. وتنقسم هذه العشيرة الى ثلاثة اقسام كبيرة هي الصبخة،العفادلة،الولدة. وقد استقلت كل واحدة من هذه البطون بشؤونها حتى لكانها لا تجتمع في نسب واحد .

ولم يبد منها تضامن ما في اخطر المواقف . فعشيرة الولدة دخلت في خصام مسلح عنيف مع عنزة سنة ١٩٣٨ حتى اليوم فتكبدت في خصامها هذا خسائر فادحة، ومع ذلك فقد قعدت العشيرتان الاخريان عن مناصرتها. وقد كانت عشيرة العفادلة في حلف مع شمّر وعشيرة الولدة في حلف مع عنزة. وهذا من الامور المستغربة بالنظر للقرب والجوار وتشابك المصالح بين العفادلة وعنزة. والعفادلة اشد العشائر الثلاثة فتكا وبطشا . اما السبخة فتنزل في الموضع المسمى باسمها ما بين الرقة ودير الزور على ضفة الفرات اليمنى . ويسكن العفادلة قضاء الرقة على الضفة اليسرى . وليس منهم على الضفة اليمنى الا فخذ واحد هو الموسى الظاهر اما الولدة فيشغلون الجانبين من النهر غربا الى محافظة حلب . يتراوح عدد البو شعبان بين الستة والسبعة الاف بيتا . وتكون قسمتها التقريبية هكذا :

	بيت	نسمة	
السبخة	١٥٠٠	٧٥٠٠	
العفادلة	٢٢٠٠	١١٠٠٠	
الولدة	٢٥٠٠	١٢٥٠٠	(١)

ويمثل هذه القبيلة في المجلس النيابي ثلاثة اشخاص اثنان منهم عن قضاء الرقة والثالث عن قضاء منبج .

اما نسب القبيلة فيرجع على زعمهم الى زبيب . ويعتقد ~~ليسلصل~~ مولر ان اصل جميع القبائل نصف الرحل غامض مضطرب وانها تؤلف عناصر غريبة عن بعضها جمعت بينها المصالح الموقتة، ويزعم ان بين البو شعبان عناصر يهودية عديدة ودليله على ذلك ان اليهود كانوا قد اسسوا في القديم قلعة جابر على

---

(١) جميع هذه الاحصاءات تقريبية. ولم يجر حتى الان احصاء دقيق لجميع العشائر في سوريا . زد على ذلك ان العشيرة كثيرا ما تنقسم على نفسها فيتبع قسم منها قضاء معينا ويتبع الاخر قضاء آخرا . وقسم من هذه القبيلة تابع لناحية السبخة ويحسب نفوسه مع تلك الناحية، وقسم تابع لمركز قضاء الرقة ويحسب مع سكان الرقة الحضريين، وقسم ثالث تابع لناحية مريبط وتل ابيض، وقسم آخر يتبع لمحافظة حلب ويدخل في احصائها .

على البعد خمسين كيلو مترا غربي الرقة وقلعة الرحبة بالقرب من الميادين٠

اما احوال القبيلة الاقتصادية فتشبه من كل الوجوه احوال القبائل الاخرى، فهم اهل فلاحة وزراعة كما انهم يعتنون بتربية المواشي٠ ويلاحظ استعداد في تقبلهم حياة الحضارة وذلك لاحتكاكهم المستمر بالمدن الكبيرة مثل حلب٠ وادى احتكاكهم هذا الى تسرب بعض اسباب الحياة الحديثة في زراعتهم كاستعمال المضخات والالات الزراعية٠

الجبور: على الضفتين من نهر الخابور الاعلى الى قرب منبعه وعلى ضفتي جغجغ الاسفل وفي السهول الممتدة غربا وشرقا تسكن قبيلة الجبور٠ وكانت مساكنها ، الى قرن مضى ، حوالي قرية البصيرة والصور من الخابور الاسفل ، الا انها نزلت تدريجيا الى الشمال تحت ضغط قبيلة العكيدات٠ وكان لهذه القبيلة في القديم شأن وهيبة، ولكنها اليوم فقدت كثيرا من عزها القديم واستضعفتها القبائل الاخرى٠ والرئاسة في آل الملحم٠ ويختلف آل الملحم عن بيوتات الرئاسة في القبائل الاخرى في كونه يمتاز كثيرا عن سواد القبيلة في الاشكال والافعال بينما نجد الفروق بين الرؤساء كسواد الناس في القبائل الاخرى قليلة وتكاد تكون معدومة٠ وسطوتهم على القبيلة تفوق سطوة آل المحمد على شمر٠ ويعتبر آل ~~للمحمد مسلب~~ الملحم من ابرز الشيوخ واشهرهم محمد امين وهو جد مسلط باشا وينسبون اليه انه طعن شاه العجم(١) والجبور هم اقرب القبائل التي ذكرناها اتصالا بالحياة البدوية وتقاليدها وكانت الى عهد قريب من القبائل التي تدفع الخوة الى شيوخ شمر٠ ولكن الهادى ابن العاصي انزل الخوة عنهم واحدث بينهم وبين شمر ــ الخرصة تماما٠ ويرجح الكثير ان نسب الجبور يتصل بالازد، وهم اهل المدينة الذين نصروا النبي حين هجر مكة٠ ونسبهم صاحب تاريخ الموصل الى العبيد من قضاعة٠ يمثل القبيلة نائب واحد عن مدينة الحسكة وهو جميل بن مسلط باشا٠

---

(١) تستند هذه الدعوة الى اساس تاريخي ذلك ان صفوق رئيس شمر كان قد حرضه العثمانيون على غزو ايران فجمع القبائل في جيشه وكان محمد امين من انصاره٠ وقد يكون محمد امين المذكور استطاع ان يطعن قائد الجيش الفارسي وهو ابن الشاه فتغنت القبيلة بهذا الحادث٠

الفصل الخامس

القبائل الرحّالة

شمّر :- المشهور انها قحطانية تنتسب الى طيء (١) . اذ ان موطنها ، حين مجيء الاسلام ، كان السهل الممتد من النفود الى وادى الرمان الذى يعلو فيه جبلا أجأ وسلمى المعروفان بجبل طيء ، واحيانا بجبل شمّر (٢) . وقد كان لجبل شمر اهمية كبرى فى تاريخ التجارة العربية قبل الاسلام ، اذ كان محط رحال القوافل بين بابل وبطرا (٣) . فليس غريبا ان يجتذب رخاؤه الجماعات العربية التى يصيبها ضيق وشدة فتلتقى على اديمه قبائل من عدنان وقحطان . ومع ذلك فاننا لا نجد بدا من اعتبار جميع القبائل النازلة فيه قحطانية ، لان قبيلة طيء القحطانية نزلت فيه قبل الاسلام بقرون عديدة وسيطرت عليه وكان النزاع بين العدنانية والقحطانية ابدا عنيفا مستحرا ، فكان من المستبعد ان تنزل فيه قبائل عدنانية الا اذا كانت من القوة والبطش بحيث تقهر طيء وتطغى عليها — وهذا لم يحصل . ثم ان العدنانيين كانوا قليلي التنقل والمهاجرات بعكس القحطانيين الذين عرفوا بكثرة الانتقال . وعلى فرض انه تسرب الى تلك المنطقة بعض العدنانيين او كان فيها قبل نزول القحطانيين قبائل عدنانية فاننا نعتبرهم جميعا قحطانيين بحكم معيشتهم فى وسط يغلب فيه العنصر القحطاني وبحكم تلاحمهم وانتسابهم فيما بعد الى القحطانية . فشمر اذن ، مجموعة من القبائل القحطانية منها من ينتسب الى طيء ومنها الى فروع اخرى من قحطان (٤) .

---

(١) — راجع العزاوى . ص . ص . ١٢٧ — ١٣٠

(٢) — انظر : Ency. Islam : Shammar .

(٣) — David G.Hogarth, The Penetration of Arabia, p.I56 (U.S.A., 1904)

(٤) — كلمة شمر ، فى الغالب ، وصف لحق بهم حين خرجوا من اليمن مهاجرين الى انحاء أجأ وسلمى ، اذ كانت حالهم ضيقة عسيرة ، فشمروا عن ساعد الجد واوعز اليهم رؤساؤهم (ان شمروا ...) .
(العزاوى ص ، ١٢٨)

تاريخها في سوريا :- حصلت اول هجرة شمرية الى سوريا في اواخر القرن السابع عشر (١) . وكان قوامها شمر الجربا التي انخزلت عن شمر الجبل (التي تقيم في جبل طي) في منتصف القرن المذكور . وحاول المهاجرون ، بقيادة زعيمهم فارس الجربا ، عبثا النفوذ الى منطقة دمشق فدخلوا تدمر واعملوا فيها نهبا وتخريبا . ثم انعطفوا الى الشمال الغربي نحو فركلس (الواقعة بين تدمر والقريتين) . ولكنهم اصطدموا بالحديديين والعمور وبالموالي خاصة الذين كانوا يسيطرون على تلك المنطقة سيطرة تامة ، وظلت الحرب سجالا بين الطرفين مدة طويلة ، لا ينطفئ نارها حتى تعود الى الاشتعال لاتفه الاسباب .(٢) فلما عجزت شمر عن كسر شوكة الموالي ودخول منطقة حمص ــ حماة ، راحت تتبسط نحو الشمال حتى بلغت الفرات عند موقع ابو هريرة وبسطت نفوذها على المنطقة الواقعة بين الفرات والجبال (البشري ، جبل العمور ...) من الميادين حتى اطراف حلب . غير ان سيادتهم كانت قصيرة المدى . ففي اوائل القرن الثامن عشر جاء العنزيون الاول من نجد (الحسنة والفدعان) وتحالفوا مع الموالي ضد شمر فانتزعوا منها مناطق نفوذها . واخذ الشمريون طريق نجد ثانية لعلهم يستعيدون فيها مركزهم السابق . كان ذلك في منتصف القرن المذكور ، وكان ابن السعود ناشطا لنشر الدعوة الوهابية متحفزا للفتح والحروب . وقد حاول الشمريون المقيمون عبثا التخلص من سلطانه والاحتفاظ باستقلالهم . ولم يفلح مطلق الجربا في اثارة القبائل ضد

---

(١) ــ العزاوي : ص ص ١٤٣ ــ ١٦٩

Rabbath : pp. 240 - 242

Muller : pp. 22 - 41

(٢) ــ يزعم الشمريون ان الموالي قتلوا غدرا عددا كبيرا من رؤسائهم في مؤتمر من مؤتمرات الصلح المعقودة بين الفريقين .

ابن السعود ومحاربة دعوته ، فاثر المهادنة واضطر الى قبول شروط قاسية . ولكن ابنه مسلط ابى الرضوخ لمطالب ابن السعود ، فشوق اباه على محاربته . وكان مسلط هذا شجاعا ابي النفس صلب العود (١) . فثارت الخرصة وبعض العشائر الشمرية الاخرى على ابن السعود ولكنها كانت ابعد من ان تفت من سلطانه ، اذ كان مسيطرا آنئذ على سوريا الداخلية كلها تقريبا حتى الحميرة (بين حماة وحلب) . فنزح مطلق مع سنجارة (فداغة وثابت) وبعض العبدة واتجه الى الشمال . وكان يصطدم دوما فى طريقه بالعنزه من رولا وفدعان وسبعة وانحرف الى الشرق واقام وعشيرته فى منطقة وادى الثمج ووادى حوزان حيث مات مطلق . ولما مات مطلق اقلع اخوه فارس بقومه الى الجزيرة .

كان ذلك فى اوائل القرن التاسع عشر . ووجدوا فى الجزيرة قبائل جيس وطي وجبور وعبيد وغيرها . فاخضعوها وارغموها على دفع الجزية . وعلا شانهم فى الجزيرة واستعملهم الباب العالي لقمع ثورات بغداد عام ١٨٣٥ . ولكنهم عادوا الى الثورة والعصيان لاسباب عديدة منها تقرب العنزيين من الباب العالي وخوفهم مغبة هذا التقرب . ونشبت اضطرابات عديدة لم تهدا حتى عام ١٨٣٥ حين استمالت الدولة رئيسهم صفوق الجربا ومنحته لقب " سلطان البر ". وامتد نفوذ صفوق حتى بغداد . واستفاد من الفتن الداخلية فى عنزة فعبر الفرات وبسط نفوذه على تلك الاراضي حتى منطقة حلب . واحتالت الحكومة فقبضت عليه وابعدته الى الاستانة ثم ما لبث ان افرجت عنه وما لبث هو ان عاد الى مناوئتها حتى قبض عليه ثانية وقتل غدرا عام ١٨٤٠ . وتقاسم ولداه فرحان وفارس نفوذه ، فانقسمت شمر الجربا الى قسمين : الاول فى منطقة الدجلة تحت رئاسة فرحان والثاني فى منطقة الخابور والفرات الاوسط تحت رئاسة فارس . فلما جاء الافرنسيون الى البلاد كانت شمر الزور (سوريا)

---

(١) - ومما يحكى عنه ان امه كانت تخشى بطشه فتحذره . من ذلك سالها يوما اى اشجع هو او ابوه .. فلم تجبه فلما الح عليها قالت له كل منكما شجاع وبعد الالحاح الزائد ذكرت ان اباه اشجع فضربها ضربة كادت تطير بام راسها .

(العزاوى : ص ١٤١)

برئاسة مشعل ابن فارس . وكانت شمر العراق برئاسة دهام بن الهادى بن العاصي ابن فرحان باشا . وترك دهام الهادى العراق عام ١٩٢٢ ملتجئا الى سوريا بسبب اصطدامه مع الانكليز (وقد نصب الانكليز عوضا عنه ابن عمه عجيل الياور) واستطاع دهام ان يكسب سريعا ثقة السلطات وثقة اقاربه وعشيرته فاصبح رئيسا للخرصة .

ولا نريد ان نستعرض تاريخ شمر خلال الانتداب الافرنسي وقد عرفنا نوع العلاقة بين الافرنسيين والعشائر فى الفصل الثالث ، فلا حاجة الى سرد تاريخ شمر لانه ليس الا تفسيرا لتلك العلاقة . انما يجدر التنويه به ان الافرنسيين لم يستطيعوا الاتصال بشمر حتى عام ١٩٢٥ . وخضعت شمر للسلطات واثرت فيها الاساليب التى اشرنا اليها ...

تشغل قبيلة شمر القسم الشمالى الشرقي من الاراضى السورية على الحدود العراقية كما ان الحدود السورية التركية بالقرب من الدرباسية تعد منطقة نفوذ لها . ويتراوح طول منطقة نفوذها من الشمال الى الجنوب بين اربعماية الى خمسماية كيلومترا . وتتالف شمر من عشيرتين مستقلتين يرأس كلا منهما فرع من آل المحمد او آل الجربا . وهما الخرصة وسنجارة . ويتمتع آل المحمد بمكانة قوية فى نفوس القبيلة ، ولا ينازعهم على الرئاسة بيت آخر مهما علا شانه وذاع صيته . يرأس عشيرة سنجارة (او شمر الزور) ويمثلها فى البرلمان ميزر العبد المحسن بن عبد الكريم بن صفوق الذى مر معنا ذكره انفا . وليس من احصاء رسمي دقيق يمكن الاعتماد عليه فى معرفة عدد العشائر ، ولهذا فان الاقوال متضاربة حول عدد العشائر . وقد جعل مولر عدد سنجارة ١٤٠٠ بيتا اى نحوا من ٨٠٠٠ نسمة معتبرا ان البيت مؤلف من ستة اشخاص كما نستنتج من جداوله . بيد ان كثيرا من العارفين فى احوال شمر لا يعترفون بهذا العدد ويرفعونه الى اكثر من هذا بكثير . ويشمل تجوالها المنطقة المحدودة من الشمال بخط نوستل ، راس العين ، تل الحميدى والمنخفضات غربي سنجار ، ثم من الجنوب الشرقي منخفضات الرضة . اما الخرصة فيرأسها دهام الهادى ، وهو اكثر نفوذا من زميله ميزر واكثر احلافا وانصارا . وهو يمثل عشيرته فى المجلس النيابي ولا يزال الصق

بالبداوة واشد محافظة على تقاليدها من ابنى عمه ميزر ، وتعد الخرصة على تقدير مولر الف بيت ، ويرفع الكثيرون هذا العدد الى ثلاثة آلاف بيت . وتجوالها يمتد من حوض جغجغ الاعلى وروافده الرد حتى شرقى راوة (الواقعة على الفرات فى العراق) .

لقد كانت الجزيرة باجمعها منطقة نفوذ لشمَّر وكانت العشائر النازلة من عربية وكردية تدفع لها الخوَّة . بيد ان نفوذها اخذ يتقلص وخرجت العشائر من نفوذها واستقلت عنها فلم يبق لشمر الا النفوذ الادبي والاحترام التاريخي . وتتالف الجزيرة من سطوح كلسية تنحدر المنحدرات/ فيها المائلة الى الجنوب حتى الخليج الفارسي وتمتد من الشمال الى الصحراء السورية وهي ارض خصبة جدا ويرويها نهر الخابور ونهر البليخ والفرات والدجلة وروافد اخرى عديدة (Rabbath p.242)

عنزة :- المعروف ان عنزة هي من اولاد عنز بن وائل اخو اخي بكر بن وائل واخوهما تغلب (١). فهي اذن عدنانية على عكس شمر القحطانية (٢) . والراجح ان موطن القبيلة الاصلي نجد . وتوجد اليوم مدينة تحمل اسمهم على بعد خمساية كيلومترا الى الشمال الشرقي من المدينة المنورة (٣) . واول هجرة لهم الى سوريا حصلت فى اواسط القرن السابع عشر وكان قوامها الفدعان والحسنة وكانت الحسنة آنئذ اكثر عددا واعظم شانا مما هم عليه الان ، ويظهر انهم توقفوا فى المنطقة الكائنة شرقي حمص . اما الفدعان فقد اتجهوا نحو الشمال وتحالفوا مع الموالي ضد شمر كما ذكرنا سابقا . وتوالت هجرات عنزة من جزيرة العرب الى سوريا فجاءها العمارات والسبعة وولد علي ثم الرولا فى اواخر القرن الثامن عشر . واستطاعوا ان يجلوا شمر عن الصحراء السورية ويفرضوا سلطانهم على جميع القبائل النازلة فيها . واتسع نفوذهم سريعا فحاصروا بغداد عام ١٨٣٠ ، وفى عام ١٨٣٥ هاجموا حلب ونهبوها . واستمروا يعيثون فى البلاد فسادا حتى عام ١٨٦٤ حين جهزت الحكومة حملة عسكرية قوية ابعدتهم نهائيا من المدن . وقد راينا كيف اراد البدو وعنزة منهم خاصة المحافظة على حيادهم

---

(١) — العزاوى : ص ٢٥٨ — ٢٦٠ — زيدان ١٧٧ — ١٧٨

(٢) قابل Ency. Islam, Arabia
Kiernan : p. I7

(٣) Rabbath : p.243

فى الحرب العالمية الاولى ثم ما لبثوا ان مالوا الى فيصل والانكليز . وكان تاريخهم منذ مجيئهم الى البلاد حافلا بالنزاعات والانقسامات الداخلية . فقد تحالف السبعة والرولا ضد الحسنة وغلبوها على امرها عام ١٨٥٠ تقريبا ، وكسروا نفوذها . ثم تنازع الرولا والسبعة عام ١٨٧٥ ، الامر الذى اتاح للفدعان ان يثبتوا مركزهم وينتشروا حتى الفرات ويعبروه غربي الرقة حيث لا تزال منطقة نفوذهم هناك . وقد استمرت الحرب بين الرولا والسبعة سنين عديدة اسفرت من انتصار الرولا ، وعينت بعدها مناطق تجوال العشائر العنزية . والصحراء السورية او بادية الشام هي منطقة نفوذ العشائر العنزية . يوجد صحارى تفصل بين البلاد وصحارى توحد بينها . ان الصحراء السورية هي من النوع الموحد بين الاراضي المجاورة وقد كانت حتى فتح قناة السويس اقصر طريق بين الشرق والغرب (١) . وتتالف بادية الشام من سهول واسعة فيها مساحة كبرى كبيرة قابلة للزراعة . وهي ترتفع انجادا واسعة مبتدئة من شرقي لبنان وحوران على مسافة سبعماية كيلومترا ، وتميل قليلا من الغرب الى الشرق ، وتبرز فيها تلال صغيرة ذات تربة بركانية الاصل . وجبل عنزة الواقع على بعد ٣٠٠ كيلومترا الى الجنوب الشرقي من دمشق هو المرتفع الوحيد الذى يصل ارتفاعه الى ١٥٠٠ مترا . والصحراء السورية على الرغم انها جيولوجيا امتداد لسهول بلاد العرب ، انما تختلف من حيث مناخها وصلاحها للسكن . وقد تبدو فى الصيف كخيمة ضاربة الى الصفرة ثم يصيبها جفاف عظيم فاذا ما جاء الربيع اكتست بحلة كثيفة خضراء من العشب ، وتكون آنئذ مورد الغذاء لحيوانات القبائل والموسم الذى ينتعش فيه البدو . ونلاحظ ان الغزو يكاد يختفي فى هذا الموسم وتزول الحزازات ويسود السلام العالم البدوى . فاذا اوشك الربيع ان ينتهي وبدت تباشير الصيف منذرة العشب باليبوسة والاصفرار والماء بالنضوب ، تطوى الخيام وتنزح القبائل الى اماكن اخرى ويعود الى البادية صمتها الرهيب (٢) .

---

(١) — Grant p. I -

(٢) — Rabbath p. 244

تنقسم عنزة الى قسمين كبيرين هما آل مسلم وآل بشر . ويتفرع عن آل مسلم عشيرتان الرولا والحسنة وعن آل بشر عشيرتان فى سوريا : الفدعان والسبعة وعشيرة فى العراق وهي العمارات .

الرولا :- اكبر العشائر العنيزية واقواها نفوذا . يجعل مولر عددها نحو ٢٥٠٠ خيمة (او بيتا) . ولكن بعض العارفين يقولون انها تتجاوز اربعة الاف خيمة . وتلتحق بالرولا فرق صغرى عديدة . وتاريخ العشيرة ملئ بالمنازعات والحروب ، ففي سنة ١٩١٠ دخلوا فى نزاع مع القبائل النجدية وهاجموا الجوف . وجعل الاتراك اميرهم نواف الشعلان حاكم الجوف ومنحوه لقب سلطان . وظل الرولا ينازعون القبائل الاخرى السيادة على الجوف حتى ما بعد الحرب العالمية الاولى . وكان نورى الشعلان قد اعلن ولاءه فى ابتداء الحرب لجمال باشا ... ثم قابل فيصل فى الازرق عام ١٩١٧ وانحاز الى الحلفاء ، وبعد مجئ الافرنسيين وقع اتفاقا مع الكولونيل كاترو عام ١٩٢٧ ومنح اوسمة جوقة الشرف من درجات مختلفة . يرأس هذه العشيرة ويمثلها فى المجلس النيابي فواز الشعلان بعد وفاة جده نورى . وقد كان هناك بيت يقول بعض العارفين انه كان ينافس آل شعلان وقوة ونفوذا وهو آل الطيار ، ولكنه اصبح اليوم ثانويا . وتمركزت الرئاسة فى آل الشعلان ، وهم يحكمون بدون منازع ومنافس . وتمتد سطوتهم على ضنا مسلم كله .

تصيف الرولا فى المنطقة الممتدة من جنوبي حمص حتى شرقي الاردن . فيصيف قسم فى المنطقة الواقعة بين حمص وبحيرة قطين والحسية (على طريق دمشق حمص) وبين فركلس . ويصيف فريق ثان فى غوطة الشام ومنطقة النبك . وينزل فريق ثالث حتى حدود الجولان وسهل النقرة (حوران) ويجتاز بعضهم احيانا الحدود اللبنانية حتى بعلبك والبقاع . وفى الشتاء ينقسمون فريقين : ياخذ الاول (الرولا الشمال) طريق الصحراء من جيرود والقريتين ، ويدخل الرولا الجنوب وادى السرحان فى الجنوب الشرقي .

الحسنة :- كانت عشيرة قوية النفوذ كبيرة العدد غير انها غلبت على امرها كما اسلفنا وتقلص نفوذها وهي لا تعد الان اكثر من ثلاثماية بيتا والرئاسة فى بيت الملحم وهو بيت له نفوذ ادبي قوى . وكان يمثلها فى المجلس طراد الملحم

وقد اغتيل منذ شهور قليلة بسبب خلاف مع عشيرة النعيم . وانتخب ابنه تامر عوضا عنه . ومنطقة تجوالها تتبع الرولا .

<u>الفدعان</u> -: يعدون نحو ثلاثة الاف بيتا . وينقسمون الى قسمين هما الولد وآل ماجد . فاما الولد فان ممثلهم الرسمي وشيخهم مجحم بن مهيد . واما آل ماجد فان ممثلهم وشيخهم عبد العزيز بن كميشيش . وهنالك قسم يقال له آل كحيل ويراسه اليوم عبيد بن غبين . وكان لهذا البيت مجد فى الماضي وقوة ولكنه اصبح اليوم ثانويا . ويكاد مجحم يستأثر بالرئاسة المطلقة على الفدعان جميعهم . وله مكانة قوية عند البدو ويلعب دورا خطيرا فى السياسة المحلية . فى الصيف ينقسمون الى قسمين : الاول يجتاز الفرات بين الرقة ومسكنة ويصيف غربي البليخ . والثاني يبلغ اطراف حلب . وفى القديم كانوا يسكنون سهل العمق بالقرب من انطاكيه . وفى الشتاء يتجمعون الى الجنوب والجنوب الشرقي فى منطقة البشرى غربي دير الزور او الى الشمال من السخنة .

<u>السبعة</u> -: يعدون نحو خمسة آلاف بيت يراسهم وممثلهم فى المجلس النيابي راكان بن مرشد وهم ينقسمون الى قسمين يؤلف كل منهما عشيرة مستقلة .

<u>العبدة</u> -: ويعدون نحو الفي بيت . يرأسهم صالح بن هديب . وهم يصيفون شرقي حمص وفى الشتاء يبلغون اعالي وادى حوران .

<u>البطينات</u> -: يرأسها اليوم راكان بن مرشد وتعد نحو ثلاثة آلاف بيت . يصيفون فى المنطقة الواقعة الى الشمال الشرقي من حماة . وفى الشتاء يبلغون وادى حوران والحماد .

× × ×

الصلبة (١)

لا يكون استعراضنا للحياة البدوية فى سوريا وافيا تاما اذا نحن اغفلنا الصلبة . والصلبة

---

(١) - البستاني - دائرة المعارف - <u>صليبية</u> - العزاوى - ص ص ٣١١ - ٣٦١

A. Musil, <u>Palmyrena</u> (New York, 1928) p.90 - Ency. Islam, <u>Sulaib</u>
Musil, <u>In the Arabian Desert</u>. p. 169 - Philby, Vol. I, p. 268 (The heart of Arabia, London, 1922)
William Wright, <u>Palmyra and Zenobia</u> (n.d.) pp. 48 - 49
Les Tribus Nomades et semi-Nomades...

والصلبة جماعات رحالة معدمة فى البداوة مبعثرة فى بلاد العرب لا يكاد يخلو منهم قطر واحد من الاقطار . ويتردد عدد منهم على الصحراء السورية من حين الى اخر وينزل فيها عدد آخر . ومن الصعب تعيين عدد الصلبة فى سوريا وفى بلاد العرب عامة . ويعتقد البستاني انهم يعدون اقل من مئتى الف نسمة . وفى هذا العدد مبالغة كبيرة . ولم تعتبرهم من البدو ولا تشملهم مميزات المجتمع البدوى التى تعرفها لغموض نسبهم وانحطاط مركزهم الاجتماعي وفقدانهم معظم اخلاق البدو وتقاليدهم . وقد اهملت المصادر التاريخية القديمة ذكرهم لتشتتهم فى البلاد وبعدهم عن الغارات والحروب . فكان ذلك مدعاة لتضارب روايات المحدثين واقوالهم فى اصل الصلبة ، وذلك لاعتمادهم على التخمين والترجيح .

يزعم بعض هؤلاء الكتاب ان الصلبة ليست الا عشائر الزعانيف التى جاء ذكرها فى المصادر الاسلامية القديمة . وكان الزعانيف كما تشير هاتيك المصادر محتقرين من العرب بعيدين عن التقاليد والاخلاق العربية . ويذهب فريق ثان انهم من الهنود الذين فروا من وجه التتر وتيمورلنك ، وحطت بهم الرحال فى بلاد العرب حيث نزلوا فيها وحاولوا ان يتطبعوا بطباع اهلها . او هم على رأى فريق ثالث من قبائل الزنكانة المعروفة باسم الغجر او النور (١). ولكن اشهر الروايات التى تتحدث عن الصلبة هي تلك الرواية التى ترجعهم الى الصليبيين الذين تشتتوا واوغل الجم الغفير منهم فى القفار والبرارى بعد ان قهرهم الايوبيون ومزقوا شملهم . وقد حاول العزاوى ان يفند هذه الرواية ويدلل على مواطن الضعف فيها . واذا كان قد نجح ـ الى حد ما ـ فى محاولته ، فانه لم يأت برأى جديد واضح عن اصلهم وكل ما قاله هو ان الصلبة بدو قضت عليهم الحروب فى ابعد الازمان فتفرقوا فى القفار وضاع نسبهم . وهو تعليل واه كما نرى . وعلى هذا فاننا نجد الرواية التى ترجعهم الى الصليبيين اكثر الروايات صحة . لقد ظل الافرنج فى هذه البلاد نحوا من مئتى عام ، ولما تمزق شملهم ودالت

---

(١) ـ يقول رايت ان البدو يرجعون اصل صلبة الى العرب الذين حاربوا فى كربلاء وفروا من ساحة القتال فحلت عليهم لعنة الله وكان ذلك سبب انحطاطهم وغموض نسبهم فيما بعد . ولم اتثبت من صحة هذا القول . (Wright p. 48)

دولتهم وارادوا العودة الى بلادهم لم يكن عندهم من السفن ما يكفى لنقلهم جميعا ، فتخلف قسم منهم فى البلاد . ولم يكن عسيرا على اولئك المتخلفين الولوج فى البادية . وعلى الرغم من القرون الطويلة التى قضوها فى الصحارى تحت وهج الشمس ولفح الرياح فان ملامح وجوههم ولون بشرتهم لا يزالان يذكران المرء باسلافهم الصليبيين . ومن ملامحهم التى يختلفون بها عن البدو صفاء البشرة وامتلاء الوجه ووفرة الشعر وزرقة العينين . وتعدد الزوجات ليس شائعا عندهم كما هو الحال عند الآخرين . وكان طبيعيا ان ينسوا عاداتهم ولغتهم القديمة ويأخذوا بالعربية التى لا يستطيعون التفاهم بغيرها . ومع ذلك فان البستاني يلاحظ ان ليس فى منطقهم صلابة اللفظ البدوى وقوته . وقد تحدث موزل الى بعض الصلبة ووجد انهم يعتقدون بانتسابهم الى الافرنج ولكنهم لا يجرأون البوح بذلك (*). وسواء صح انتسابهم الى الصليبيين ام لم يصح فانهم يختلفون عن البدو كثيرا . وينظر اليهم العرب نظرة احتقار وازدراء . ومن دواعي احتقارهم لهم ، الى جانب غموض نسبهم ، تعاطيهم امورا هي فى نظر البدو خسيسة دنيئة كبيع الادوية واعراضهم عن حياة الغارات والحروب التى تميز المجتمع البدوى. وهم اعرف الناس بطرق المفاوز وامهرهم فى القنص . ولهم جلد عظيم على القنص حتى انهم يحتفرون حفرا ويكمنون فيها ساعات طويلة انتظارا لفريستهم وهم يرتدون جلود الغزال والوعول ويعيشون حياة بائسة فقيرة . ولا يعتدى عليهم العرب ابدا لانحطاط مركزهم ويعدون من الجور محاربتهم والتجاوز عليهم + وليس للحكومة مشاكل معهم ولم يكونوا يدفعون شيئا الى الاتراك . وكذلك فقد اعفاهم المفوض السامي من دفع الضرائب بموجب قرار سنة ١٩٢٢ .

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية ،الصحية ،الاقتصادية ،الدين

يعيش البدوى حياة بسيطة ،والغزو يكاد يكون مبعث النشاط فيها • وقد تكلمنا عن الغزو سابقا وقلنا انه المجال الوحيد الذى تبرز فيه مواهب البدوى وانه صناعة البادية وتسليتها الوحيدة • وهو نظام اختص به البدو وحافظوا عليه على الرغم من تحريم الاسلام له ،ومحاولة الحكومات المتعاقبة منعه • وله نظام معقد يختلف في بعض تفاصيله عند العشائر ونحن نقتصر على اهم مقتضياته • يقود الغزاة رئيس من رؤساء العشيرة الكبار ويأخذ من الغنيمة ما طاب له بشرط ان لا يتعدى ثلث مجموع الغنيمة • وقائد الغزو يسمى العقيد • واذا تساوت منزلة رجلين في الغزو وكان كل منهما ينتمى الى فخذ كبير فان كلا منهما ياخذ (العقادة) من جماعته • اما اذا كانا من بيت واحد ،فالعقيد من اقترح الغزو وهيج الرجال • اما عشائر شمر فلا يجوز فيها ان يكون شمرى عقيدا في غزوة اذا كان احد آل محمد (رؤساء شمر) مشتركا في الغزوة ،اذ يصبح المحمدى عقيدا دون منازع • واذا كسب الغازى فرسا او جملا بان اشهد عليها الاخرين حين كسبها تكون له خارجة عن التقسيم • وتكون الخيول الاصائل للشيخ ولو كسبها الافراد • ولا يجوز الغزو على عشيرة ما لم تكن عدوة ومعلنا عن عداوتها من قبل • واذا حصل غزو على عشيرة غير عدوة فان المغانم ترد اليها • ويتقيد البدو في غزوهم بالشرائع الانسانية المعروفة تقيدا تاما ،فهم لا يقتلون طفلا ولا امرأة ولا يقتلون الا المحاربين من الرجال ،ولا يقتل رجل آخر عمدا • واذا تمكن فارس من آخر فالمتكن يمنعه اى يقول له الق سلاحك وانت عند فلان ويسمى اسمه • فاذا استسلم الفارس المهاجم والقى سلاحه فانه لا يجوز قتله ابدا • ولا يجوز عندهم ضرب البيوت ولا سيما البيوت الكبيرة لانه يرجح ان يكون فيها ضيوف واهل مصالح من غير القبيلة• كما انه لا يجوز مفاجأة الحى في آخر الليل كيلا تروع النساء والاطفال •

ذلك هو نظام الغزو وهو كما يبدو لنا حركات رياضية اكثر منه وسيلة للسلب والتقتيل • غير ان الغزو لا يشغل وقت البدو كله فهنالك الصيد والقنص وهناك افراحه واعياده • واهم من ذلك كله مجلس القهوة الذى يكاد يكون المؤسـ

التهذيبية الوحيدة في المجتمع البدوى . يتعلم فيه الشبان آداب المجتمع وتاريخ وتقاليد القبيلة ونظم الفروسية والحروب ونسب عشيرتهم والعشائر الاخرى . وفي مجلس القهوة ~~مجلس القهوة~~ تغنى لغتهم وتتسع مفردات حديثهم .

ومعرفة البدو بالجمل تكاد تكون ثقافته . فهو يعتني بتربيته واقتنائه ويعرف له اسماء عديدة له . وينظر اليه كانه مصدر ثروته ،اما النقود فلا تبهره ولا تسترعى اهتمامه لان الجمل يجلب للجمل اما النقود فتذهب [١] وليس غريبا اهتمام البدوى الشديد بالجمال . فالناقة تعطيه الحليب طوال السنة ،الذى هو الغذاء الوحيد لمعظم الاسر البدوية لشهور عديدة . ومن اوبارها يبنى بيته ويبيعها ليشترى الدقيق .

اما الخيل فهي اداته في الحروب . وهي وسيلة ترف ورياضة بالقياس الى الجمل . والبدوى يتقن ركوب الخيل اتقانا جعل الامر من الامور الطبيعية . فهم لا يمدحون الرجل لركوبه الخيل ولكن لبلائه في المعارك وشجاعته . [٢]

وحياة البدوى على نكدها وضيقها لا تثير في نفسه اليأس والالم . فهو سريع النسيان ،يقاسى برد الشتاء حتى اذا اطلت تباشير الربيع تراه نسى الشتاء وآلامه وراح يهلل للربيع ويستبشر به . فالعربي – كما يلاحظ فيلبى – متفائل في طبيعته ،ينسى الماضي وشقاءه . [٣] وافراحهم يظهرونها في الاعياد والاعراس واوقات الختان وفي مواسم الربيع وحين يعود الرجال ظافرين من الغزو .

<u>الحياة الصحية في البادية</u> : ان البدو معرضون لشتى انواع الامراض المتولدة من قذارة المياه وسوء التغذية واقتصارهم على لون او الوان قليلة من الطعام . وهذه الامراض لا تمتد اليها يد طبيب ووسائل المعالجة عندهم اولية بسيطة ،وكثيرا ما يتركون مريضهم يكافح المرض بنفسه فاما يغلبه ويعيش او ينغلب ويموت . وذلك تبعا لشرعة الصحراء التي تقول ببقاء الاصلح والاقوى . وقد لاحظ موزل ان من بين الرولا لا يصل الى سن الشيخوخة الا عدد ضئيل وان اكثر من اربعة

---

(١) Doughty. Vol. 1. p: 233

انظر ايضا Musil, <u>Manners</u> , pp: 348-349

(٢) Philby Vol. 1. pp: 328-329

(٣) Philby. Vol.1. p: 132

اخماس الرجال يهلكون اما في الحروب او متاثرين بجراح الحروب التي لا يعتنى بتضميدها ومعالجتها او بنتيجة امراض مشهورة . اما النساء فيموت معظمهن اثناء رضاع اطفالهن . (١)

غير ان الامراض ليست منتشرة كما يتصور المرء لاول وهلة . فالتعرض للهواء الطلق ووهج الشمس المحرقة القاتل لمعظم الجراثيم ، ثم حياة التنقل والنشاط التي يحياها البدوي - كل ذلك ساعد على خلق مناعة في جسمه ضد الامراض والجراثيم . ولذا فقد خفت نسبة الامراض في البادية الى حد كبير بعكس القبائل نصف الرحل حيث تكثر الامراض وتقل مناعتهم لمقاومتها . (٢) وقد شهد كثير من الاجانب قوة اجسام البدو . كتب كبير جراحي نابوليون الاول البارون دولاري اثناء حملة سوريا ومصر قائلا : ان بنيان البدوي اقوى مما هو عند الاوربيين ، واعضاء حواسهم دقيقة .. فكان ذكاؤهم متناسبا مع اعتمار اجسامهم . (٣) ولم تقم حتى الان دراسة شاملة للاحوال الصحية في البادية كي نعرف انواع الامراض المنتشرة فيها ومدى خطرها . غير اننا نستطيع ان نعدد الامراض التالية : (٤)

١- البجل : وهو في عرف الاطباء داء السيفليس او ما يسمونه في اللغة العامية " الافرنجي " . ولكن تبين لدى الاطباء الخبيرين بشؤون البدو ان هذا الداء غير السيفليس . اذ يختلف عنه انه اقل خطورة وابطا انتشارا وعدوى الى السليمين . ثم انه قليل التاثير على الاجنة . وبكلمة اخرى ان السيفليس في البادية ليس مرضا ساريا ووراثيا . واعراض هذا المرض تراخ في الجسم وتفكك في المفاصل كما انه قد يترك بقع حمراء في الجسم المصاب تخرب احيانا الانف والحلق والحنجرة . ويداوونه بالجنزار . ويعتقدون انه مرض حتمي لا بد من الاصابة به . ويختلف الاطباء في نسبة انتشاره ، ويذهب البعض في رفع النسبة الى تسعين في المائة .

٢ - ويسبب كدر المياه التي يشربها البدو اصابات في الكلي والمعدة والكبد . وهذه الامراض منتشرة في البادية . وقد ترتفع النسبة الى حد كبير وذلك لعدم اتخاذهم اي علاج لمكافحة هذه الامراض .

---

(١) Musil, Manners, P: 466

(٢) Carl R. Raswan, Moevres et Cotumes des Bedouins, tr. from Engl. by G. Montandon (Paris, 1936) pp: 199-200

(٣) Zwemer p: 262

(٤) انظر : Jamali p: 46 Musil, Manners pp: 466-469, Muller p: 177, Doughty. vol.1. p: 256. vol. 2. p: 340

٣ ـ وامراض العين منتشرة انتشارا كبيرا في البادية وتؤدى في كثير من الاحيان الى العمى . والتراخوما اكثر هذه الامراض انتشارا . وهذا لا يمنع ان البدو يبصرون بوضوح من مسافات بعيدة ،وذلك راجع الى صفاء الصحراء واتساعها.

٤ ـ ومن اكثر الامراض انتشارا عند البدو الجدرى . وقد يفوق كل داء فتكا بالاطفال . اما السل فلم يكن معروفا في البادية الى عهد قريب . وقد بدأ انتشاره في الماضي القريب . ولعل السبب قلة المغازى التي كانت تعرض الناس الى التنقل والرياضة . اما الحميات التي يصاب بها اهل المدن فيندر وقوعها في البادية .

ووسائل المعالجة عندهم كما قلنا قليلة فقيرة ،فلا صابون ولا معقمات . زد على ذلك انهم لا يتورعون من زيارة مرضاهم مهما يكن المرض خطيرا . فتنتقل الامراض بهذه الواسطة وبواسطة اشتراكهم في قصعة واحدة وفي فنجان واحد يشربون به القهوة . ولا ننسى الخطر الناجم من جراء اتصالهم بالمدن ونقل الامراض اليها او منها . واعظم طبيب عندهم هو الله تعالى يتكلون عليه وينتظرون نتيجة المرض. وقد يحضرون للمريض شيخا دينيا يقرأ عليه بعض التعاويذ او يكتب له الحجاب . واشهر ادويتهم المستعملة العطبة،اى الحرق بالنار او الكي كما يقولون. ويستعملونه لكثير من الامراض الداخلية والخارجية.

الحياة الاقتصادية :ـ قلنا في كلامنا عن الحياة الاقتصادية في القبيلة العربية ان اسباب العيش فيها شاقة قليلة. ونضيف هنا ان مستوى الحالة الاقتصادية متقارب بين افراد العشيرة اى ان استقطاب المال او تمركز الثروة عند فئة و الفقر عند فئة اخرى غير موجود في المجتمع البدوى . ذلك لان الرأسمالية لا توجد الا في وسط صناعي . والفوارق المالية والعلمية بين افراد شعب واحد لا تكون بارزة الا في المجتمعات المتحضرة والمدن الكبرى وهي تتضاءل كلما نزلنا الى مستوى ادنى . فالفرق في الثروة بين اغنى غني وبين افقر فقير لا يتجاوز عددا ضئيلا من الابل والغنم وافراد القبيلة البدوية يعدون اجمالا فقراء، باستثناء مشايخهم الذين شرعوا يتخذون من الثروة دعامة لتوطيد مركزهم في العشيرة بعد ان اضاعوا كثيرا من الفضائل المتطلبة من الشيخ . فعمدوا الى ضمان مستقبلهم ومستقبل ابنائهم باقتنائهم الاراضي واكثارهم من الزراعة والاتجار احيانا وهكذا فانهم بدأوا يخرجون من حظيرة الشيوخ الى حظيرة الاقطاعيين وسلكوا خططا مشينة في سبيل خروجهم كتقربهم من الافرنسيين وخضوعهم لهم وتضحيتهم بمصالح القبيلة الاساسية.

الدين والمعتقدات: لا حاجة لتكرار ما قلنا سابقا من ان الاسلام كان تأثيره على البدو جد ضئيل. ذلك لان المثل العليا تتوفر في الحضارة اكثر مما تتوفر في البداوة. وحرص البدوى على تقاليده ونفوره من تكاليف الدين جعلته قليل التعصب للدين. فحياة الصحراء لا تسمح له بالقيام بالطقوس الدينية المطلوبة، وكان البدو ابعد الناس عن التصديق بالاولياء والقديسين وظل فهمهم للاسلام ناقصا سطحيا لا يعرفون منه الا انه جملة من الطقوس والتكاليف. وقد ذكر فولني انه تحدث الى نفر من البدو مستطلعا عن اسباب عدم تأديتهم فرائض الدين فاجابوه: "كيف يتيسر لنا الوضوء وليس لدينا ماء؟ وكيف نؤدى الزكاة ونحن فقراء؟ ولم صوم رمضان ونحن صيام طول السنة؟ وعلام الحج الى مكه ما دام الله في كل مكان؟" (1) ولاحظ موزل انه خلال عام ١٩٠٨ و ١٩٠٩ لم يشاهد فردا واحدا من الرولا يقوم بفريضة الصلاة (Deserta p: 427) ثم انهم لا يتورعون عن ارتكاب الامور التي نهى عنها الاسلام كقتل النفس بحجة الدفاع عن القبيلة والعرض، واباحة السرقة من قبيلة معادية واعتبارها صفة من صفات الرجولة والشجاعة. ومن شذوذهم عن الاسلام حرمانهم النساء من حق الارث واستيلاؤهم على مهور بناتهم. وبالجملة فانهم طبقوا من الاسلام ما وجدوه متفقا مع تقاليدهم الموروثة ونبذوا ما دون ذلك. والبدو يخضعون لجملة من الاوهام والخرافات التي لا تنطوى على تكاليف معقدة شاقة، كما انها لا تحمل فلسفة للكون والحياة ولنسرد بعض هذه الخرافات:

١- البشعة: - وهي وسيلة تتبع في معرفة المتهمين بالاجرام. وكيفيتها ان المتهم يساق الى شخص له صلة بالدين يقال له المبشع. وهذا في حال عدم وجود ادلة على المتهم ولا تقبل منه اليمين. ويتحدر المبشّع عادة من سلالة لها هذه الصفة. يحمي المبشع قطعة حديد هي الآلة التي يحمون بها البن في الغالب، يحميها حتى تغدو حمراء من شدة الحرارة ثم يضطر المتهم الى لحسها فان كان بريئا سلم من حروقها واذاها والا احترق وظهرت آثار ذلك. وللمبشع قوة حدسية من كثرة مراسه بالعمل فهو يستطيع الحكم على ثبوت الحرق وعدمه. وهي وسيلة خرقاء، اذ كثيرا ما يضلل المتهم المبشع حين يكون رابط الجأش ماهرا في اخفاء الاثار. قد ثبت ان بعض المجرمين اجتازوا عملية التبشيع بحكم البراءة

(1) Volney. pp: 407-408

٢- في الغزو وفي كل سفر يتشاءم البدو اذا اعترض سبيلهم ارنب . ويتشاءم الفرد منهم اذا عثرت فرسه وفي احيان كثيرة يرجع عن الغزو. وهم يتفاءلون اذا اعترضتهم حية.

٣- ويتشاءمون في البادية من نعيق البوم ويعدونه نذير شر، وقد يكون الشؤم من البوم لانه لا يسكن الا الخرئب والديار الداوارس، ومن عواء الكلب اذا كان متطاولا ممدودا فاكانه يبكي ميتا عندهم، ومثل ذلك هالة القمر فهم يعدونها انها نذير موت شيخ كبير .

٤- وتأثير العين من اكبر خرافاتهم، فهم يعتقدون ان هناك افرادا تؤثر عيونهم في منظوراتهم، فان اظهروا اعجابهم بانسان او فرس او خلاف ذلك فلا يلبث المنظور ان يهلك ، ويقولون عندئذ انه اصيب بالعين.

٥- ومن اوهامهم وعاداتهم الوثنية الحلف بالعود والاعتقاد بالسحر والشعوذة.

هذه الاوهام كثيرا ما يشترك بها اهل الحضر مع البدو. وقد سرد موزل طائفة من معتقدات الرولا (Manners pp: 1-19 & 411-420). وما صح منها ينطبق في الغالب على سائر البدو.

الفصل السابع

الاحوال الشخصية : النكاح ، الطلاق ، المهور

قبل التعرض لمسألة الاحوال الشخصية عند البدو ، لا بد من تقدير مركز المرأة في المجتمع البدوى واول ما تجب الاشارة اليه في بحثنا هو ان المرأة عند جميع الشعوب القديمة لم تكن تلقى العناية والاهتمام اللذين تلقاهما في المجتمعات الحديثة لاعتبارات كثيرة لا مجال لتبيانها الان ، وانما كانت ابدا موضع اهمال الرجل واحتقاره . وتعدلت هذه النظرة الجائرة وتكيفت بتعديل نظم الاجتماع البشرى ورقي مدارك الرجل . وكانت الشعوب السامية خاصة تحمل هذه النظرة الجائرة . يعزون الى المرأة جميع شرور المجتمع . وتتجلى لنا هذه النظرة في تعاليم موسى الالهية ، اذ ان مدة تطهيرها ضعف مدة الرجل (١) . وليس غريبا ان يكون مركز المرأة في المجتمع البدوى منحطا الى حد بعيد ، لان البدوى يمثل لنا العقلية السامية القديمة خير تمثيل . فكانت المرأة العربية في المجتمع الجاهلي – قبل الاسلام – تعتبر اداة انتاج ، وكان الناس يئدون البنات حرصا منهم على ان لا تكون مثار عار وشنار لهم . وجاء الاسلام يشنع عاداتهم ويستهجن وأد البنات "واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب . الاساء ما يحكمون" فرفع الاسلام من حالة المرأة الاجتماعية واقر لها بحقوق الوراثة ونظر اليها نظرة ارقى بكثير من نظرة المجتمع الجاهلي وقد اشار غوستاف لوبون الى ما فعله الاسلام من اجل رفع شأن المرأة مقررا انه انصفها اكثر من معظم القوانين الاوربية (٢) .

تلك هي حال المرأة في المجتمع البدوى . غير ان ثمة دوافع اخرى جعلت البدوى ينظر الى المرأة نظرة احترام وشفقة . فشعور الكرامة الذى يملأ نفس البدوى وحرصه على تكثير نسله ، لان تكثير النسل سبيل النهوض والمنعة

---

(١) Doughty. p: 239

(٢) Lebon. p: 426

" " القرآن الكريم –

ثم قلة تكاليف المرأة وما تؤديه من خدمات كبرى للرجل ـ كل هذا رفع من قيمة المرأة في نظر الرجل وجعله ينظر اليها نظرة احترام وعطف. هذا الازدواج الغريب عند البدوى بين شعور الاحتقار وشعور الاحترام نحو المرأة يتجلى لنا في معظم تصرفات المجتمع البدوى. فالبدو يحترمون المرأة [١] ولا يقتلونها في غزو او حرب، وهم لا يسلبونها ما معها من امتعة ونقود ولا يمنعونها حتى في المحامع ان تستودع اموال الرجال، ولا تصل اليها عند ذات ايدى احد حتى من المتخاصمين. واذا رافقها الرجال في سفر كانت موضع حفاوتهم فيركبونها ويمشون ويطعمونها ويجوعون، ويستحيونها حتى لا ينبس احدهم بكلمة نابية على مسمع من المرأة. وتكاليفها الثقيلة اكبر دليل على اهميتها. انها تدير شؤون البيت، فتحلب الغنم وتحتطب وتنسج مواد البيت، وكثيرات منهن يرعين الابل والغنم. وهي سافرة تجالس الرجال وتجتمع اليهم. هذه مظاهر تبين لنا مبلغ ما تتمتع به المرأة البدوية من حرية. وقد اثار ذلك في نفوس كثير من الغربيين شعور الدهشة والاعجاب [٢] ومع ذلك فاذا تمعنا قليلا في مركز المرأة الحقيقي وعلمنا بواعث تقدير الرجل لها واحترامه اياها نجد انها محتقرة منبوذة، وان تلك المظاهر لا يمكن ان توحي الينا برقي مركز المرأة. فهم يرغبونها لانها تكثر لهم النسل وتعينهم على مشاق الحياة. والمرأة التي لا تنجب اولادا لا تلبث ان تغدو موضع اهمال زوجها فيتزوج غيرها وينبذها. وتعدد الزوجات شائع عند البدو لا سيما عند شيوخهم وعند من يستطيع دفع تكاليف الزواج. ثم ان المرأة البدوية تظل متصلة باهلها وينظر اليها انها جزء من اسرتها وعشيرتها وفي هذا ما فيه من الافتئات على شخصيتها. والرجل يأنف من ذكر المرأة في حديثه واذا ذكرها مضطرا قال ـ اعزكم الله ـ فكأنه ذكر امرا محزنا (مخزيا). وامثالهم الكثيرة تؤيد ما نذهب اليه من انحطاط مركز المرأة في المجتمع البدوى.

واكبر دليل على انحطاط مركز المرأة في المجتمع البدوى تعدد الزوجات. وهو امر شائع. واهل الزواجات المنفردة اقل عددا من اهل الزواجات المتعددات بين البدو.

---

(١) انظر: Zwerner. p: 239

(٢) يقول مولر ان المرأة البدوية لا تضاهيها امرأة اخرى في مدى حريتها (ص٢٣٦)

اما العدد فهو طبق ما جاء في التشريع الاسلامي اى انه لا يتجاوز الاربعة. كان تعدد الزوجات في المجتمع الجاهلي القديم شائعا، ولم يكن هناك قيود للعدد. وجاء الاسلام رافعا من حال المرأة وحدد العدد باربعة. ان الخلاف الظاهر بين تطبيقات البدو وبين التشريع الاسلامي او بعض البدو يجمعون اكثر من اربع زوجات ولكنهم لا يبقون في عصمتهم الشرعية الا اربعا وما زاد منهن يخعلن او يطلقن ولكن يبقين في بيوتهن اعني في بيت الزوج اذا كان لتلك الزوجة اولاد. وفي هذه الحالة يقولون عن الزوج بالنسبة الى هذه الزوجة انه آخاها. ولا يجوز هذا في التشريع الاسلامي. وتعدد الزوجات كما المحنا كان شائعا في المجتمع الجاهلي القديم. ولم يكن هنالك من قيود للعدد. وجاء الاسلام مقرا بعض عادات الجاهلية منكر القسم آخر ومعدلا قسما ثالثا. فقيد العدد باربع ونبه الرجل الى المصاعب التي يلقاها في هذا الزواج مشترطا عليه العدل. زد على ذلك ان تعدد الزوجات امر اقتضاه ظرف خاص في اول الاسلام. فالدعوة الاسلامية كان عليها منذ بدء دعوتها ان تعتمد على الكفاح والحرب كسبيل لانتشارها ودرء الاخطار عنها. والرجال معرضون للفقدان والنقص ولا يصح ان تبقى النساء بلا ازواج فيفقدن سعادتهن ويتعرضن لضياع الحشمة والاداب، فابيح تعدد الزوجات تلافيا لفساد الحياة العائلية. ثم ان تلك الامة الناشئة كانت محتاجة الى اكثار عددها باكثار نسلها فكان تعدد الزوجات الوسيلة المثلى لهذه الغاية. وهذه الاسباب نجدها مصغرة في المجتمع ~~القبلي~~ القبلي، اذ تظل القبيلة في حالة كفاح ونضال، ابدا محتاجة للرجال وتكثير النسل. يضاف الى ذلك سبب آخر هو نفع النساء في العمل اليومي وخدمة كيان البيت. فالمرأة البدوية -كما قلنا- تحتطب وتحلب الغنم وتبني البيت في النزول وتقوم على تهيئة الطعام. وكل هذه اعمال ذات قيمة لا سيما لدى بعض البيوت الكبيرة التي يؤمها الضيفان آناء الليل واطراف النهار. ولهذا وجد المجتمع البدوى ضرورة ماسة لتعدد الزوجات. واصبح امرا طبيعيا مألوفا خاصة عند الشيوخ (١) ومن الممارسة والمران فقد خفت روح البغضاء والتحاسد التي تقوم عادة بن الزوجة وخدمتها كما نشهدها

---

(١) يذكر موزل انه ابدى لنواف الشعلان دهشة من تعدد ازواجه وكيف يهدم سعادتهن الواحدة تلو الاخرى. فاجابه نواف: هذه ~~عادتنا~~ عادتنا وكيف يمكن لابن الامير ان يكتفي بزوج واحدة (In the Arabian Desert p: 8)

عند الحضريات، بل انه لا يندد ان تأخذ الزوجة نفسها باغراء زوجها للتزوج من اخرى كي تعينها على شؤون البيت المرهقة. ونظام تعدد الزوجات -مهما تكن الاسباب- نظام فاسد [1] والاسرة البدوية بالرغم مما لاحظنا اسرة منقسمة واهية العرى.

الطلاق

كما كان تعدد الزوجات شائعا عند عرب الجاهلية وجاء الاسلام محددا له وملطفا، كذلك كان الطلاق شائعا في المجتمع الجاهلي وجاء الاسلام ملطفا له تارة ومنددا تارة اخرى. وقد قال الرسول "ابغض الحلال الى الله تعالى الطلاق". والمجتمع البدوى الذى تأثر قليلا بالاسلام لا يجد في الطلاق امرا كبيرا كما هو في روح الاسلام. والطلاق يجرى عندهم بسهولة فلا يكلف الزوج الا كلمة واحدة كي تنقطع الصلة بينه وبين امرأته وتتفكك الاسرة. وطبيعي ان يكثر الطلاق عند البدو لانه نتيجة حتمية لمقدمة فاسدة، اعني الزواج فاسد. ذلك انه يجرى غالبا ولا يشاهد الرجل قرينته العتيدة وانما يخطبها بالذكر والسماع، وقد تعشق الاذن عندهم قبل العين. ومراسيم الطلاق تجرى عندهم طبق تعاليم الاسلام فلا حاجة لذكرها.

الكفاءة والمهر

في الجاهلية التكافؤ بالمنزلة الاجتماعية بين اسرتي الزوجين هو الكفاءة في الزواج، وكان عرب الجاهلية يعتبرون بعضهم اكفاء بعض فلا يمنع احدهم زواج ابنته الا من عبد او مولى. وجاء الاسلام معتبرا المسلمين قاطبة اكفاء بعض لبعض. وفي المجتمع البدوى نجد الكفاءة في الزواج كما هي في الجاهلية اى ان البدو لا يزوجون بناتهم الى العبيد والى الذين

---

(1) يدافع لوبون عن تعدد الزوجات قائلا انه نظام صحيح يهذب العنصر الاخلاقي في الشعوب ويقوى من تماسك الاسرة ويجعل موضع احترام واكثر سعادة مما هي في اوربا. ويتساءل في النهاية عما اذا كان تعدده المشروع احط من تعدده غير المشروع الذى نشاهده في اوربا (ص ص: ٤٢١ - ٤٢٢)

والمج×المذي
لا يعرف لهم نسب وباستثناء هذا، فالبدو جميعهم اكفاء بعضهم لبعض (١)

اما المهر، فكما كان الامر في المجتمع الجاهلي وكما اقدر الاسلام، يدفعه الرجل. الى انه في المجتمع البدوى ليس للمرأة منه شئ وانما يأخذه لنفسه وليها، واذا زفت الفتاة الى بيت زوجها اهداه الولي جملا وبضع نعيجات. وللمهر حدود معقولة تبتدئ من العشرين نعجة وتصعد. وطبيعي ان يزداد المهر كلما كان تباعد في المركز الاجتماعي بين الخاطب وبين اسرة الخطيبة. وفي اكثر الحالات يدفع المهر معجلا. ولذا فيأخذ الزواج في البادية شكل البيع والمساومة.

الحيار

الحيار معناه محاماة بنت العم او القريبة ومنع احد من زواجها احتفاظا بها لنفس المحير. وليس في التشريع الاسلامي شئ من هذا. (٢) انما هو نظام اختص به البدو وسرى الى القبائل نصف الرحالة والى بعض المدن التي لا تزال تحيا عصبية قبلية. والمحير احد ابناء الجد الخامس للفتاة ومتى تجاوز فليس له الحق بالتحيير. واذا اقدم الخاطب البعيد على الزواج مصرا على عدم مراعاة الحيار فللمحير استعمال السيف (وليس من قوة تستطيع ارغامه اذا اصر على موقفه. وكم من مرة مات فيها بعض الخاطبين عشقا دون ان يتمكنوا من الزواج بعشيقاتهم لان لهنّ محيرين من ابناء عمهنّ. ولا عبرة لرأى الفتاة.) واذا قيد الى العوارف بعد ذلك فهو غير مسؤول. وحق الحيار للاقرب نسبا اذا ادعاه كثيرون من الاقارب.

---

(١) نلاحظ عن شيوخ شمّر انهم يتزوجون من النساء الشماريات ولكن رجال شمّر لا يتزوجون من بيت المشيخة فهم يعتبرون هذا البيت ارفع من منزلتهم. وهذه الظاهرة من باب الاستثناء. ولعلها حديثة العهد.

(٢) حدد الاسلام درجات القربى التي يمكن الزواج منها، ولم يمنع الزواج من احدى القريبات. ولكن جاء عن لسان الرسول : اغتربوا ولا تضووا. اى تزوجوا من القريبات كى لا تضعف اجسامكم. وقال ايضا : لا تنكحوا القرابة القريبة فان الولد يخلق ضاويا (ابن الاثير الجزرى، النهاية في غريب الحديث والاثر، مصر، ١٣١٣. حرف الضاد) ج٣

الفصل الثامن

القضاء عند البدو

لا يشمل التشريع المطبق في البلاد القبائل الرحل (١). فقد ترك للبدو امر حل مشاكلهم وفق العادة والعرف عندهم . وطبيعي ان يكون للعرف والعادة اثرها الاول في مجتمع كالمجتمع البدوي يقوم على عصبية النسب وحفظ التقاليد والاستقلال عن المؤثرات الخارجية . والبدو حريصون على عاداتهم وعلى حل مشاكلهم وفق ما اعتادوا عليه . وقد كان للدين الاسلامي تاثير على معظم عاداتهم ، ولكنه تاثير ضئيل . وطبيعي ان تتعدد طرائق حل المشاكل وتتباين وتتضارب وذلك باختلاف طبائعهم وتنوع البيئات التي يعيشون فيها . بيد ان هذه الطرائق وان تنوعت وتباينت من حيث تفاصيلها الا انها واحدة من حيث اساسها وجوهرها . ونحن نجد ان القوانين التي يتبعها اهل الحضر تشترك مع عادات البدو في كثير من الامور ، وذلك لان جميع القوانين في مجتمع ما ليست في اساسها الا تدوينا لعادات ذلك المجتمع وتعديلا لها في بعض الاحيان ، فلا غرابة اذن ان تكون عادات البداوة اساسا لكثير من القوانين المدونة . غير ان ثمة اختلافا في امور اخرى كثيرة بين البداوة والحضارة . اهمها ان حياة البداوة ليس فيها سلطة قضائية تسن الشرائع بصورة شعورية وفقا لتطورات تلك الحياة ولا تدعمها سلطة تنفيذية تلزم الافراد لاتباع القوانين المسنونة ، انما هنالك عدد من الناس الخبيرين بشؤون القبيلة والمطلعين على عاداتها الموروثة يحكمون بين المتخاصمين وفق معلوماتهم ،

---

(١) — العشائر الرحالة في نظر القانون هي التالية :

منطقة دمشق : الرولا — ولد علي — السوالمه — الاشاجعة — العبد لله — البدور — النعيمات .

منطقة حلب : الحديديين — الموالي — الشماليين والقبليين — البوخميس — الهيب — الوهب — الكيار

منطقة حمص وحماة : السبعة — بنوخالد — الفواعرة — العمور .

منطقة الفرات : الفدعان : ولد وخرصة .

منطقة الجزيرة : شمر : خرصة والزور

منطقة جبل الدروز : المساعيد — الحسن — الشرافات — العظامات — الشنابلة — السردية .

والسلطة التنفيذية هي شرف الفرد وولاؤه لتقاليد القبيلة ثم قوة الرئيس . ويسمى هؤلاء القضاة العوارف . فالعرافة عند البدو هي بمنزلة القضاء في المجتمع المدني الحديث . وقد تجتمع احيانا السلطة التنفيذية مع السلطة القضائية ، كان يكون رئيس القبيلة من العوارف في الوقت نفسه كما هي الحال لدى مجحم بن مهيد رئيس عشيرة الفدعان العنزية . وينقسم العوارف من حيث اهليتهم الى ثلاثة اصناف . هناك عوارف اعتبروا صالحين لاصدار حكم اولي وهؤلاء يحكمون قائلين : " ... وان لم يرضكم الحكم فعندكم فلان " . ويسمى العارفة الذى هو اعلى منزلة في الحكم . فاذا لم يرض احد الطرفين المتخاصمين من حكم العارفة الثاني فانه يحيلهما الى شخص ثالث يعتبر قوله الحكم الفصل . كذلك تنقسم العرافة الى ثلاثة اقسام من حيث صفة العارفة . فهناك :

١ - عوارف الاحوال الشخصية كالنكاح والطلاق والميراث وما شاكل ذلك . وهؤلاء يكونون غالبا من القراء المطلعين بعض الاطلاع على احكام القرآن الملمين بعض الالمام باحكام الشريعة الاسلامية . ويكون هؤلاء غالبا من القبائل نصف الرحل .

٢ - عوارف الخيل . وهم يقضون بالامور الناتجة عن بيعها وشرائها ومخلفاتها وحقوقها في الغزو وما شاكل ذلك . ويكون هؤلاء العوارف عادة من الذين اقتنوا الخيل كثيرا وخبروا شؤونها .

٣ - العوارف الذين يقضون بسائر المسائل الحقوقية والجزائية .

والعارفة يكون عادة من كبار الاذكياء الذين ورثوا مركزهم من عدة اجيال ومارسوا مهنتهم سماعا عن ابائهم واهلهم . فهو يحسن الاستماع ويفهم مقاصد المتداعين ويحرض الصلح على المتخاصمين محاولا اصلاح ذات البين . وله شخصية يفرضها على الغير ومنزلة رفيعة في العشيرة . فهو سفيرهم الى القبائل الاخرى وهو نسابتهم وحافظ اصولهم . ويندر ان تقوم بينه وبين الافراد اختلافات اذ يتحاشاها حرصا على سمعته ومقامه . ولا يانف اكبر الرؤساء مقاما من التقاضي عنده . ويتقاضى العارفة رسما على القضية التي تعرض عليه يسمى الرزقة . يدفعها في غالب الامر المدعي . غير انه شاع في المدة الاخيرة عند بعض العشائر

عادة اخذ الرزقة من الشخص الذى يدينه التحكيم . وتصبح الرزقة من حق العارفة سواء اقبل المتخاصمان بالحكم ام لم يقبلا . ولا ياخذ العارفة مركزه فى المجتمع البدوى ما لم يكن صلبا فى الحق لا تاخذه فيه لومة لائم ، فيصدر حكمه على اكبر المشايخ واصغر الرعاة اذا كان ذلك حقا . ومن عرف عنه الذل والخوف ومداراة الروءساء والانحياز لجانبهم فانه يخسر مركزه ويتجنبه الناس. ويستند العارفة فى حكمه كما قلنا الى العادة والعرف المتبعين . فليس هناك ، اذن ، عدالة مطلقة ولا حق محدود . انما هناك راى عام يتواضع على ان هذا حق وهذا غير حق . فالحق هو الذى يحدث الارتياح فى الراى العام . ويستند العارفة فى حكمه على القياس على احكام سابقة لهذا الحكم . ولا يصح الحكم الصادر الا اذا قيس على حكمين سابقين صدرا فى امر مشابه للامر المعروض . ونحن اذا تمعنا فى معظم الاحكام الصادرة عن هوءلاء العوارف لا نجدها تختلف فى جوهرها عن الاحكام التى يصدرها قضاة المجتمع المدني الحديث ، لان المشاكل التى تطرا على افراد المجتمع البدوى تطرا على افراد المجتمعات الاخرى ايضا . والاختلاف انما هو فى ماهية ونوع الجزاء . مثلا ـ السرقة ممنوعة فى عرف البدو كما هي ممنوعة فى التشريع الاسلامي والشرائع الاخرى . ولكن عرف البدو يمنع ويجازى على السرقة من الصاحب ، ومعنى الصاحب الذى لم تعلن الحرب ضده من العشائر . وكذلك يمنع سرقة الحي او العشيرة التى ينتمى اليها السارق ، وتحصل السرقة فى هذه الحالة مربحة . غير ان السرقة من الاعادى مستحسنة ومدعاة للفخر . اذ انهم يعتبرون هذا العمل مضعفا للعدو وان صاحبها معرض للقتل ، فالسرقة فى هذه الحالة مخاطرة ومجازفة ، اى انها شجاعة .

والزنا محظور عند البدو كما هو محظور فى التشريع الاسلامي والشرائع الاخرى. فجزاء الزاني فى الشرع الاسلامي ثمانون جلدة للعزاب وشة للمتزوجين واحيانا رجم الزاني الى ان يموت . اما الزاني عند البدو اذا ثبتت عليه التهمة فانه يعرّى من ثيابه ويوضع فوق جمل مطلى بالقار ويمدد عليه فما اصاب القار من جسده يقطع(١). وهذه الشدة فى مجازاة الزنا تتفق ومقتضيات المجتمع البدوى القائم على العصبية والانساب فلا يسمح باختلاط النسل .

---

(١) ـ كذا يحكم مجحم بن مهيد .

غير ان هناك فوارق بارزة بين عرف البدو وبين سائر الشرائع في بعض المسائل كمسالة الارث . فالبدو لا يمنحون الاناث حق الارث . وكذلك في الزواج فانهم لا يتقيدون بعدة النساء بعد طلاقهن بينما الشرع الاسلامي اشترط لامكان زواجها ثلاثة حيضات ومدة معلومة ان لم تكن المراة تحيض . وذلك منعا لاختلاط الانساب . اما في البداوة فقد تحدث مشاكل وخلافات بين زوج المطلقة القديم وزوجها الجديد . وهذه الفوارق تؤكد ما المحنا اليها آنفا من عدم تاثر البدو بالاسلام كثيرا . ومن الامور التي اختص بها عرف البدو ولانجد لها ذكرا في الشرائع الاخرى مسالة / الوسقة / . فالعرف البدوي يجيز للدائن ان يحتجز مال من يطلب منه دينا او مال قريبه حتى يسدد المدين الدين . وتسمى هذه العملية " الوسقة " . واذا كان صاحب المال المحجوز من القمة بحيث يستطيع استرداد ماله فان الحاجز يدخل هذا المال المحجوز عند شخص اخر يستطيع الاحتفاظ به حتى نهاية التحكيم .

وعلى ضوء هذه الايضاحات نستطيع ان نعرض اهم القضايا التي تدور حولها حياة البدو .

<u>الجوار</u> :- في حالة وقوع نزاع بين طرفين - سواء كان الطرفان فردين ام جماعتين ام عشيرتين - لا يقوى احدهما على تحصيل حقه من الاخر فانه يدخل عند احد الاقوياء اي يستجير به وهذا يجيره على الحق . وتكون مهمة هذا القوي المجير ان يسوق خصم المستجير الى الحكم او العارفة . فان حكم هذا على خصم المستجير بشيء فقد وجب تنفيذ الحكم بقوة السلاح اذا امتنعوا هم عن تنفيذه . واذا كان الخصوم هم المطالبون وحكم الحكم ببراءة المستجير بالمستجير يكون تحت حماية المجير ولا يستطيع خصومه التعدي عليه . واذا فعلوا ذلك فان الخصومة تسقط عن المستجير وتصبح على المجير فيكون هو طرف الخصام . وله الحق ان يفتك بالمعتدي ثلاث فتكات سواء في ماله او في احد ذويه . فله الحق ان يقتل الانعام والمواشي والرجال ثلاث وقعات ، ولا يسال عن فعلته هذه امام العوارف . ويتفرع عن الجوار ادخال " وسقة " او غيرها ياتي بها شخص لا يستطيع تحصيل حقه من مدينه القوي ، والمجير مجبر على حفظ الوسقة الى نهاية التحكيم . او ان يستجير قاتل بشخص اخر ، وعلى المستجار به ان يجيره الى ان

يصل الى مامنه او يشهر حكم العارفة . واذا امتنع المستجير عن تنفيذ حكم العارفة فللمجير ان يعلن/ انه فى حل من هذا الجوار وللخصم ان يفعل ما يشاء . وتسقط حماية المجير للمستجير ايضا فى احوال اخرى كان يستعمل المستجير قوته دفاعا عن ماله المدخل عند المجير . مثلا لو كان لزيد جمال مدخلة عند عمرو وجاء خالد واستاقها فان زيدا صاحب الجمال لا يحق له ملاحقتها والدفاع عنها ضد خالد المعتدى بل عليه ان يكلف عمرا بارجاعها وحفظها بصفته مجيرا له . واذا لم يتقيد زيد بهذا ولاحق المعتدى مدافعا عن ماله فان حماية عمرو اياه تسقط بمعنى انه قد سقط الجوار . ونستطيع اذن ان نحدد للجوار ثلاثة انواع :

١ = الجوار الذى يتعلق بالمكان ويشمل الضيف والقصير . والقصير هو الذى ينزل بيته واهله حول بيت شخص اخر قاصدا امرا من الامور او الحماية ، ويكون هذا الشخص المقصود بحماية الشخص القصير فى مكانه .

٢ = الوجه وهو ما يتعلق بالزمن اى يعلن امرؤ حمايته لشخص او جماعة ما مدة من الزمن كان يعطى المجرم مهلة حتى يصل مامنه ، او يضع فردا او جماعة بوجهه اى يحميهم الى ان يتم التحكيم بينهم وبين خصومهم . او ان يضعهم بوجهه خلال طريقهم الى غرض بمكان معين يقصدونه .

٣ = الدخل : ويتعلق هذا بحادث معين كان يدفع القاتل مثلا دية المقتول الى اهله ويدخل عند شخص اخر . وعلى هذا الشخص ان يجيره ويضمن عدم الاعتداء عليه بسبب هذا الحادث .

وهناك نوع اخر من الجوار يسمى العطوة وليس بالحقيقة الا احتياطا للمستقبل ، وذلك ان يطلب شخص من اخر جوارا دائما له ولنسله من بعده . ويقع مثل هذا الطلب فى الاحوال الاعتيادية واذا قبل الشخص المستجار به طلب المجير فانه يكون قد قيد نسله ايضا بهذا الجوار كما يشمل الجوار نسل الشخص المجير . وهذه العطوة تثبت لقاء شيء من المال يدفع سلفا . وقد تكون العطوة متبادلة بين كلا الطرفين ونسلهما .

ان الجوار امر اختصت به القبيلة العربية دون غيرها من القبائل وهناك قبائل كردية وفارسية وهندية لا تعرف من مقتضيات الجوار التى اشرنا اليها شيئا . وما ذلك الا للفردية التى تتصف بها نفس العربي وتجعله يعتز بنفسه ويعتبر من واجبه حماية المستجير وانقاذ المظلوم فيربط مصيره بمصير المستجير ويتحمل ما يترتب على هذه الاجارة من الخصومات والاخطار . والذى يقعد عن نصرة المستجير به فانه يصبح موضع احتقار الجميع واهمالهم ومن النكات فى التاريخ العربي القديم ان اعشى قيس الشاعر المشهور استجار بعلقمة بن علاثه من سادات بني عامر فاجاره من الانس والجن فطلب اليه الشاعر ان يجيره من الموت فرفض فاستجار بعامر بن الطفيل ، وهو ايضا من سادات بني عامر ، فاجاره من الانس ومن الجن ومن الموت . فسأله وكيف تجيرني من الموت فقال عامر : ان مت وانت فى جوارى بعثت الى اهلك الدية ، فمدحه وهجا علقمه (١). ويعد الشخص الهارب المستجير فى حماية المستجار به اذا دخل فى نطاق حرم البيت المقصود . وحرم البيت يشمل اقصى نقطة يصلها الحجر المرمي من داخل البيت . فمتى وصل الهارب الى تلك المنطقة فانه يعد داخلا فى البيت ولا يحق لخصومه متابعة ملاحقته . وان لكل فرد حق ممارسة الاجارة حتى العبيد ، لانهم يعتبرون قائمين بالامر نيابة عن ساداتهم . وتشترط القواعد المقررة ان يكون الخصم او المجير من عشيرة واحدة . ويجد المطلع على تاريخ العرب ان كثيرا من الحروب كانت نتيجة لمثل هذه الاجارة . وحرب البسوس بين بكر وتغلب التى دامت اربعين عاما كان سببها ان خالة جساس ارسلت ناقتها ترعى مع نياقه فقتلها كليب لانه لم يرها من قبل بين نياق جساس فثار شاعر جساس وقتل كليبا لانه قتل ناقة جارته . وكان ذلك مبعث تلك الحرب الضروس (٢) .

---

(١) - الاغاني ج ٨ - ص : ٨٣

(٢) - راجع بشأن حرب البسوس الاغاني ج ٤ - ص ص : ١٤٠ - ١٥١ .

اليمين الكاذبة :- نلاحظ التشدد في اليمين عند البداوة وما ذلك الا لفقدان النصوص والمستندات الكتابية وحرصهم على الكيان العام من التدهور والانهيار . يضاف الى ذلك ان العربي بطبعه يمج الكذب ويمقت التلاعب في سرد الوقائع . وقد اعترف له بهذه الصفة جمهور من المستشرقين وعلماء الغرب ، حتى اشدهم تحاملا على العرب كزويمر (١) . وقد اعتبر الاسلام الكذب من اقبح الكبائر وندد به في مواضع كثيرة من القرآن ، وجزاء اليمين الكاذبة في الشرع الاسلامي النار . هذا من جهة الجزاء الاخروي . اما الجزاء الدنيوي فقد ترك للحاكم تقديره بحسب الضرر الحاصل من جراء الكذب . اما عند البدو فجزاء اليمين الكاذبة صنفان :

١ = صنف اجتماعي صرف وهو اقسى الصنفين . فان المجتمع كله لا يعود يعترف للكاذب بيمينه باي وجود ، فلا تسمع منه شهادة بعد ذلك ولا يكرم في المجالس ولا يسقى القهوة — وهي اداة سمرهم — ولا يرد عليه السلام ولا يدعى لشورى . اي انه يسقط من الحقوق المدنية كما نعبر نحن اليوم .

٢ = الصنف القانوني وهو استرجاع ما يكون المرء المشهود عليه قد خسره بسبب هذه الشهادة ويطالب حالف اليمين الكاذبة امام العوارف اذا امتنع عن اداء الضرر والخسارة . والبدو يسردون الشهادة اذا لم يطلب الى صاحبها الادلاء بها : ويسمونها " مزعوجه " .

ويختلف قانون البدو عن سائر القوانين ان المدعي هو المسؤول عن استحضار الشهود في الدعاوى الجزائية . اما في القوانين المدنية فان الحق العام هو الذي يحضرهم ويخصص لهم نفقات سفرهم باعتبار ان الحكومة تنوب عن الهيئة الاجتماعية في القصاص. هذا في المسائل الجزائية اما في الدعاوى الحقوقية فيكلف المدعي بجلبهم .

الكفالة ، الوديعة ، اللقيطة :- الكفالة عند البدو تورث . اي انه من كفل امرا وتعهد بتنفيذه ثم توفي من بعد ذلك فعلى ولده اتمام هذا التعهد وتنفيذه . اما في الشرائع المدنية الاخرى فان احكام الكفالة تبطل بوفاة الكفيل . وتعليل هذا التباين بين عرف البدوي وبين القوانين الاخرى واضح ، فالمجتمع البدوي قائم على العصبية وعلى المسؤولية المشتركة . اما في المجتمعات الحديثة

---

(1) Zwemer p: 264

فالمسؤولية فيها منفردة . " ولا تزر وازرة وزر اخرى " .وهناك احوال من الكفالة تصبح العشيرة فيها او على الاقل الفخذ الذى ينتمى اليه الكفيل مسؤولا عن احكامها . وقد تكون الكفالة نوعا من الجوار تنتقل بالوراثة بعد وفاة المجير . مثلا يطلب القاتل بعد دفع الدية دخيلا من اقارب القتيل ويطلب كفيلا على هذا الدخيل حتى اذا لم يمكن نكل عن تنفيذ موجبات دخله كان الكفيل ملزما برد نكوله . اما الوديعة فاشهر انكرها عند البدو اثم الكاذبين . ومن اثبت الوديعة على وديع بعد نكرانها حكم له العارفة بها مع منتجاتها ومخلفاتها ان كانت دواب وحكم بفوائدها المعقولة ان كانت اموالا او دراهما . واذا اصاب الوديعة تلف او ضياع فعلى الوديع ان يشهد الجوار ويسجل ما حدث صونا لسمعته واثباتا لامانته . اما حكم اللقطة عندهم فهو حكم الوديعة وليس للاقط حق التصرف به والا عد سارقا وسرقته من باب سرقة الغريب تحصل منه مربعة اى اربعة اضعافها . وعلى اللاقط ان يشهد على الحادث دون حدوثه .

<u>القتيل</u> :- لا يفرق البدو بين العمد وبين القتل القصد ، اى بين القتل المسبوق بتصور وتصميم وبين القتل الحاصل اثناء هيجان القاتل . ويختلف العرف البدوى ايضا عن سائر القوانين المدنية فى من يتولى قصاص القاتل . ففى المجتمع البدوى يتولى ذوو القتيل الثار لقتيلهم ، اما فى المجتمعات المدنية فان الحكومة هى التى تتولى معاقبة القاتل . وقد يبدو للمرء ان وسيلة الانتقام الشخصى التى يلجا اليها البدوى تزيد عدد الجرائم وتجعل/ حياة الناس ملؤها الفوضى والاضطراب . غير ان الواقع ليس كذلك ، فالجرائم فى البادية اقل منها فى المدن ، والامن اكثر استقرارا . فشريعة الصحراء شريعة الانتقام الشخصى التى هى مبعث الاضطرابات والغزوات ، تخلق فى نفوس الناس الخوف من اراقة الدم والعمل على حقنه ما امكن . وكثيرا ما يتدخل العقلاء بين الاقارب فى الامر ويصلحون ذات البين ، مستبدلين حق الثار بالدية . اما الدية فهي اربعون جملا وفرسا والسلاح الذى قتل به القتيل . اما بين الاباعد فهى سبعة جمال . واهتمامهم هنا بجريمة القريب مبعثه حرصهم على كيانهم من الانحلال والتفكك . يدخل القاتل بعد دفع الدية عند احد اقرباء القتيل ويطلب كفيلا عليه تامينا له كما اشرنا من قبل . ودية العضو ان عطل اوبتر نصف دية الانسان . اما المراة فديتها نصف

دية الرجل اذا قتلت خطا . اما اذا قتلت عمدا فكثيرا ما تدفع مربعة .
ويسال عن دفع الدية عصبية القتيل عملا بمبدا المسؤولية المشتركة المتبع
فى البادية .

وجرى التحقيق عن القتل عند البدو بشكل آلي دون ان يقيموا وزنا لوسائل الاستنباط والاستنتاج التى يلجا اليها قضاة التحقيق فى المجتمعات المدنية الحديثة ، فهم يستدعون المتهم ويستحضرون له مصحفا وسيفا واحيانا ابريقا . هذه هي وسائل التاثير النفسي عندهم ، متوقعين ان يثير القرآن فى نفس المتهم ذكرى الاخرة والحساب والعقاب ، فيعترف بجرمه وان يثير السيف فى نفسه غريزة الخوف ، اما الابريق فهو دلالة الطهارة . ثم يخطون له دائرة ويدخلونه فيها ويطلبون اليه القسم على رد دعوى المدعى . فاذا كان بريئا فانه يحلف ، اما اذا كان مذنبا واراد ان يقر بذنبه فيحلن ذلك قائلا :
انني انا الفق ضربت وان الله هو الذى قتل . وقد تستهوى فى بعض الاحيان صراحة القاتل اهل القتيل فيعفون عنه ويطلبون منه الدية . والقتل عندهم لا تقبل فيه الشهادة ويثبت باعتراف القاتل فقط وينتفى بيمينه . اما الجرائم الاخرى فتقبل فيها الشهادة ، وهي اول بينة يطلبها العارفة من المدعى ، فاذا عجز عن تقديم الشهود يبقى عليه حق تحليف المتهم اليمين . ويحق للمدعي فى المسائل الجزائية رفض شهادة اقرباء المدعى عليه حتى الجد الخامس . وعند الجد الخامس ينتهى نطاق المسؤولية المشتركة . اما فى المسائل الحقوقية فتقبل شهادة الاقرباء عادة تادبا وتساهلا .

* * *

قبل ان نختتم البحث لا بد لنا من الاشارة الى مسالة الانساب فى المجتمع البدوى وتشدد دهم فيها . فالطعن على النسب يعد فى نظرهم جريمة عظمى ، يدفعها المطعون بنسبه اذا اثبت بطلان التهمة بثلاث فتكات يوقعها بالطاعن . والطعن مثلا ان يسب احد اخر بان فيه صلة من احدى والديه بالعبيد او ان يعيره بانه دعيّ اى ان العشيرة التى ينتمى اليها ظاهرا ليست عشيرته . ولا نستغرب هذه الشدة فى الانساب فى مجتمع يقوم على العصبية والمسؤولية المشتركة ومبادئ المساواة بين افراده .

الفصل التاسع

تحضير البدو

ان يكون المستوى الحضاري في بلد من البلاد متاخرا واساليب العيش فيه لا تحقق القيم الانسانية العليا امر يسهل ادراكه وتتيسر معالجته ولا يثير في النفس شعور الدهشة والعجب، ما دام الانسجام القومي متوفرا في ذلك البلد والتفاعل الاجتماعي بين طبقاته المختلفة ونزاعاته المتباينة حاصلا مستمرا. اما ان يكون في بلد واحد مجتمعان متمايزان اشد التمايز، ياخذ احدهما باسباب التقدم والنهوض، ويظل الثاني بمعزل عن ذلك التطور الحاصل فامر شاذ غريب ـ لان الانسجام القومي غير تام والتفاعل الاجتماعي مفقود. وهذا ما نشاهده في البلاد العربية. فبقاء قسم كبير من الشعب العربي في وضع قبلي بعيد عن الاشتراك في نشاطات القسم الاخر يعرقل سير العرب ويجعل نهضتهم مشوهة بتراء وعرضة للتفسخ والفناء. والدول الاستعمارية تتخذ من وجود القبائل دليلا على عدم نضوج العرب، لان القبائل تخفض نسبة التعليم في البلاد العربية الى حد كبير وتجعلها في مصاف الامم المتاخرة. وقد اصبحت نسبة التعليم، خطا ام صوابا، مقياسا على رقي الشعوب وتقدمها.

انه لامر مشين: تنظر الى اية امة من الامم الحية فتجد انها كل واحد نشيط، متلاصق البنيان متماسك الاجزاء، يتحسس افراده بمسئولية العمل المشترك متضافرين لتعميم خيرات الحضارة وتحقيق العدل الاجتماعي ومجاراة الامم الاخرى في مضمار الفكر والالة. وتنظر الى الامة العربية فتجد انها الى جانب حاجتها لمماشاة التطور البشرى تعانى مشكلة بقاء عدد كبير منها في نظام اجتماعى لا يتصل بنظام المجموع الاخر بسبب من الاسباب.

لقد دخلت سوريا عهدا ايجابيا جديدا. وبقاء القبائل على انعزالها عن مجرى التقدم العام معناه بقاء ثلم في جسم الامة يزداد اتساعا كلما جدت البلاد في استكمال اسباب السيادة والنهوض. ولن يسد هذا الثلم الا بتحضير البدو. ـ وهم العنصر الفعال في المجتمع القبلي ـ تحضيرا تاما سريعا. ثم ان في هؤلاء البدو امكانيات واسعة ومواهب جليلة مكبوتة لا تنطلق الا في الحضارة. فتحضير البدو معناه اغناء التراث القومي وزيادة مساهمة البلاد في خدمة الانسانية. لقد كانت سياسة الانتداب ـ كما بينا ـ تستهدف ابقاء القبائل على حالها، بل الحيلولة دون تطورها

الطبيعي اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا - وذلك لشل النشاط القومي في البلاد وتثبيت دعائم الانتداب . ولم تتهيأ الفرص للحكومات الوطنية المتعاقبة في الفترة الاخيرة للعمل على معالجة الوضع القبلي معالجة صحيحة حازمة لاشتغالها بالقضايا الوطنية الكبرى . اما اليوم وقد تلاشى سلطان الاجنبي عن البلاد وخفت وطأة النضال السلبي على الشعب فقد آن للحكومة ان تولى هذه المشكلة اهتماما جديا وتبلور هذا الاهتمام في عمل سريع. نحن نسجل لها فضل استقرار الامن في البادية الى حد كبير وضربها على العابثين بالسلام بيد البطش والقوة . بيد ان هذه التدابير لا يمكن ان تحل مشكلة القبائل في البلاد وتحقق الغاية المنشودة - وهي تقويض الكيان القبلي من اساسه. واذا كان البيان الوزارى يرسم الخطوط الكبرى التي تتمشى عليها الحكومات الدستورية في سياستها، فقد جاء بيان اول حكومة تتشكل بعد جلاء الجيوش الاجنبية خلوا من اية اشارة الى مشكلة البدو في البلاد (جريدة الانشاء - الجمعه ٣ ايار ١٩٤٦) اما مديرية العشائر التي انيط بها تدبير شؤون العشائر والعمل على رفع مستواهم فيسودها الفوضى والاضطراب. حلت مديرية العشائر محل مصلحة العشائر في عهد الانتداب الافرنسي وعملت بكل ما انتهى اليها من قوانين ومعلومات. فلم تكلف نفسها عناء درس قانون العشائر الذى وضعه الافرنسيون والعمل على تغييره اوتعديله تعديلا يتفق ومقتضيات العهد الجديد . ولا يزال يعوزها الاحصاء الدقيق عن عدد العشائر والمعلومات الصحيحة عن احوالها . ولم تقم مديرية العشائر حتى الان بعمل ايجابي صحيح من اجل تحسين حالة العشائر واستئصال روح النزاع والخصومة التي تسود البادية. وكيف يتسنى لها ذلك وليس لديها سياسة معينة ترسمها لها سلطة عليا، ولا يقوم على ادارتها رجال ذوو كفاءة والمام واسع باحوال العشائر وعاداتهم واخبارهم. وقد قرأت اخيرا في جريدة البلد (الثلاثاء ٦ ايار ١٩٤٦) ان مديرية العشائر تقدمت الى الحكومة بمشروع غايته مراقبة ترحال البدو بعد انتهاء فصل الشتاء وحلول فصل الربيع وما قد يؤدى هذا الترحال الموسمي من نزاعات بين القبائل . وتقترح المديرية في مشروعها تدابير عديدة حفظا للامن في الصحراء كوضع حواجز في الاماكن المتاخمة للمنطقة المعمورة لمنع دخول العشائر قبل الموعد المحدد لها، وخفارة المضارب المسموح لها بالالتحاق بمناطق اصطيافها ومراقبتها الى ان تعود الى البادية وما شابه ذلك.

فالمشروع، اذن، ليس الّا تدبيرا موقتا غايته الحيلولة دون حدوث المنازعات بين العشائر. ومثل هذه التدابير مهما اخلص المسؤولون في تنفيذها فانها لا تقضي على حياة النزاع التي تهيّمن على البادية، لان اسباب النزاع نتيجة حتمية للنظام القبلي، فلا قبل لاحد باستئصالها اذا لم يقض على النظام القبلي بكامله.

ان من واجب الحكومة وضع سياسة واضحة بخصوص القبائل ترمي الى تحضير البدو وتحسين حالة العشائر بصورة عامة. وتكون مهمة مديرية العشائر تنفيذ هذه السياسة. ان البداوة ليست نظاما اجتماعيا فحسب ولكنها اسلوب حياة له مفاهيمه ومبرراته. وهو اسلوب مغلق لا ياتيه تجديد ولا يعتوره تغيير. يقول توينبي: "ان موطن الضعف في البداوة... ليس في فشلها في ان تسمو فوق المستوى الاولى، بل في ايجادها... صيغة للعيش تنسجم انسجاما تاما مع محيط ثابت، فتقصى عامل التقلب وتوصد الباب دون اى تغير ان للخير ام للشر."[1] فالبداوة نظام اجتماع هو غاية في الاتقان والاحكام. ولكن اتقانه هذا افسد فيه قابلية التطور والتغير. وقد لاحظ نفر من المؤرخين ان البدوى لم يتغير كثيرا منذ فجر التاريخ حتى اليوم[2] على ان في هذا القول غلوا ومبالغة. فحياة البداوة مهما كانت مغلقة على نفسها مكتفية بنظمها وتقاليدها، لا بد للاجيال الطويلة والمؤثرات الخارجية ان تنالها بالتعديل والتهذيب. ومهما بلغت قناعة البدو بحياتهم وقوى فيهم شعور الاعتزاز والتعالي على سواهم فلا بد ان يتبرم البعض بما الفوه من نكد وشدة ويستهويهم يسر الحضارة ورخاؤها فيقبلون عليها من تلقاء انفسهم. وعملية الانتقال الارادى من البداوة الى الحضارة ظلت مستمرة ببطء تارة وبسرعة تارة اخرى منذ ابعد العصور حتى اليوم. ففي العهد الروماني في سوريا انتقلت قبائل كثيرة من الصحراء الى المدن[3] وكانت الدعوة الاسلامية والفتح الاسلامي سببا لمهاجرات كبرى من قفار الجزيرة وصحاريها الى بلاد الشام والعراق وغيرهما. وتواصلت تلك المهاجرات خلال التاريخ.

---

(١) Arnold J. Toynbee and Kenneth P. Kirkwood, Turkey (New York, 1927) p: 18

(٢) انظر: Huart Vol. 1. p: 36
Lebon p: 36

(٣) Bouchier p: 5

(٤) كرد علي ج ٦ ص: ٢١٥

وان معظم عشائر سوريا المزارعة كانت الى عهد قريب عشائر بدوية رحالة، مثل الدنادشة او بني دندش، فهم قبيلة يمانية جلت الى حوران منذ نحو ثلاثماية سنة [(١)]. ثم ان الحياة العصرية المتطورة اخذت تغزو اكثر الجماعات انعزالا وانكماشا على انفسهم، واصبح البدو مضطرين الى الاحتكاك المستمر المتزايد باهل المدن واقتباس اوليات الحضارة فتأثرت اساليب عيشهم ولغتهم واخلاقهم بهذا الاحتكاك.

لقد فقد المجتمع البدوى سبب وجوده raison d'être بفعل طغيان الالة على مرافق الحياة واستقرار الامن وازدياد هيبة الحكومة. فالجمال لم تعد صالحة للنقل وفقدت اهميتها باستعمال وسائل النقل الحديثة. والطرق التجارية اصبحت محمية من قبل الحكومة، ولم يعد بامكان البدو اخذ ضريبة على التجار او تحصيل "الخوة" من العشائر نصف المزارعة. فضلا عن ظهور عوامل جديدة تضافرت لتصديع المجتمع البدوى. منها انتشار الفكرة القومية في البلاد، وانغماس شيوخ البدو - وهم دعامة النظام القبلي - بحياة المدن وترفها انغماسا اقصاهم عن افراد العشيرة وزعزع ثقة رعاياهم بهم وهيبتهم لهم.

بيد ان تأثير هذه العوامل لا يمكن ان يصل بالمجتمع البدوى الى الانقراض السريع وينقل البدو الى حياة التحضر. انها عملية طويلة بطيئة وحاجات البلاد تتطلب الاسراع بتحضير هذا القسم كي يلحق بالمجموع المتحرك المتمدن ويكتمل التجانس بين افراد الشعب كافة. زد على ذلك ان البدوى لا يزال يؤثر حريته وتقاليده التي اعتاد عليها على مباهج الحضارة لانه لا يتلقى هذه المباهج على شكلها الصحيح، وان رؤساءه يريدون ابقاءه على حاله واقصاءه عن اسباب الحضارة حرصا على مراكزهم ونفوذهم.

ان حياة القبيلة حياة فاسدة صائرة الى الانحلال ان عاجلا ام آجلا، فعلى الدولة ان تعجل في القضاء عليها. ولن يبدد انقراض النظام القبلى ما نسميه فضائل الحياة القبلية، لان هذه الفضائل ليست فضائل بالمعنى الصحيح. ان الفضيلة يجب ان تكون مستهدفة خير الاخرين، اما فضائل الحياة القبلية فتقتصر على القبيلة نفسها وتخدم افراد القبيلة وحدهم. انها فضائل "انانية" اذا صح التعبير. اى انها تأتي بشكل عفوى اضطرارى ملائم للغريزة.

---

(١) كرد علي ج ٦ ص: ٢١٥

اما الفضيلة الصحيحة فتأتي ارادية معاكسة للغرائز مهدمة لها. والحضارة على الرغم من مثالبها ونواقصها افضل من البداوة واشرف. ثم ان الامة التي تبغي الحياة لم يعد في مقدورها الاختيار بين البداوة والحضارة، لان الحضارة وحدها اصبحت دليل القوة والحياة.

كيف يتم تحضير البدو؟: لن احاول هنا وضع برنامج مفصل لتحضير البدو. فهذا بعمل يتجاوز طاقة الفرد الواحد. وهو من شأن الحكومة تقوم به لجان متعددة من الاخصائيين ذوى الكفاءة والدراية وتدعمه ميزانية ضخمة ليوضع موضع التطبيق والعمل. غير انني اشير الى النقاط الرئيسية في عملية التحضير:

ان حياة البداوة خاضعة للعامل الطبيعي، اى انها نتيجة لطبيعة الارض التي عليها يعيشون. فما لم يتغير هذا العامل لا يرتجى زوال المجتمع البدوى. فايجاد الاراضي، اذن، ونقل البدو من حياة حل وترحال الى حياة فلاحة وزراعة هما مفتاح المشكلة. ولا نحتاج الى كبير عناء لنقرر ان الاراضي الصالحة للزراعة في سوريا تستطيع أن تستوعب اضعاف البدو وان استغلالها يقضي على حياة البداوة قضاء تاما. وبامكان الدولة، اذا اقتضى الامر، ان تستفيد من الصحراء السورية وتدخل الزرع والحرث الى القسم الاكبر منها. فالاجزاء الرملية في صحراء الشام قليلة، وبالامكان الانتفاع من ثلاثة ارباعها لزراعة بعض النباتات الموسمية في حالة وقوع كمية المطر المعتادة (١). فانتقال البدو الى حياة زراعية يستوجب دراسة وافية للمشكلة الاقتصادية بصورة عامة. فتعرف حاجات البلاد وتهيأ الاسواق الخارجية لتصريف المحاصيل الجديدة واعداد الوسائل اللازمة لاتقاء خطر البطالة والاضطراب الاقتصادى الذى يحدثه انتقال تلك الكمية الكبرى من البداوة الى الزراعة. واني ارى ان عملية التحضير يجب ان تنهج السبل التالية:

١- تفكيك المجتمع القبلي ككيان مستقل بواسطة اساليب سياسية حكيمة كتغيير قانون الانتخاب بحيث يصبح الانتخاب على اساس المحافظة، لا على اساس القضاء، واشتراط حد ادنى من المعرفة للنائب ووضع العراقيل الممكنة للحيلولة

---

(١) Dodd. p: 395

دون انتخاب نواب من البدو او من العشائر نصف الرحالة. ورب معترض يقول : ان النظام البرلماني الديموقراطي يجب ان يتيح لجميع المواطنين حق التعبير عن انفسهم وانتخاب ممثليهم. والجواب انه لا يجوز اعتبار من يعيشون في نظام اجتماعي يتمايز مع نظام الدولة ومقتضيات الحضارة اشد التمايز- افرادا لهم حقوق المواطن وعليهم واجباته. ان النظام البرلماني وجود امة متجانسة، فاذا لم يتوفر التجانس في امة ما لزمن ما فانه يجب اهمال القسم الخامل المتأخر كقوة مؤثرة في سياسة البلاد العليا. ان رؤساء القبائل في الوقت الحاضر سواء من كان منهم في البرلمان ام خارجه، اشخاص تربوا في ظل الانتداب وتشربوا روح المقت والاستهتار بكل حكم وطني، فلا يجوز والحالة هذه ابقاؤهم في العهد الاستقلالي الجديد. انهم ابدا مستعدون لمد يد المساعدة للاجنبي وخذل الوطن حين تتضارب مصالحهم مع مصالحه، كأن تحاول الدولة المس من استقلال قبائلهم[1]. فاذا اقصى رؤساء القبائل او معظمهم عن البرلمان ضؤل نفوذهم وسهل تحطيم نفوذ الاخرين. والشيوخ -كما قلنا- هم دعامة المجتمع القبلي وهم اشد الناس حرصا على ابقاء القبائل على حالها حفظا على مراكزهم. فكسر نفوذهم معناه ازالة العقبة الاولى دون تحضير القبائل. ولا يحسبن احد ان هذا العمل سيثير النقمة والاستياء في نفوس افراد القبيلة. فانغماس الشيوخ بحياة المدن وترفها احدث انفصالا بينهم وبين افراد العشيرة وصاروا هدفا للنقد والطعن. فرئيس القبيلة يسوم رعاياه الوان الخسف والاضطهاد ويستعملهم كآلات صماء خدمة لمصالحه وتحقيقا لمآربه الشخصية. وكانت سلطات الانتداب تدعم الشيخ وتحول دون ظهور اية نقمة على استبداده وجبروته. واذا كان لا يزال قسم كبير منهم يتحسسون بسوء حالهم فان الحكومة تستطيع بعث هذا الحس في نفوسهم واشعارهم بمظالم شيوخهم وجورهم.

---

(١) في اجتماع مع الامير مجحم بن مهيد رئيس الفدعان واحد كبار مشايخ البدو، قال لي الامير انه ناقم على الحالة في سوريا ساخط على تدخل الدولة والجيش في شؤون عشيرته. واضاف قائلا انه حريص على استقلال قبيلته وحريتها، واذا ابت الحكومة الا التمادي في تدخلها فانه يلجأ الى دولة اجنبية كالانكليز او الاتراك.

ولن تعدم الدولة وسائل اخرى لتمزيق المجتمع القبلي وتفتيت قوته.

٢- يجب ان تتعاون الحكومات العربية في وضع سياسة مشتركة نحو البدو، باعتبار ان مشكلة البداوة هي مشكلة البلاد العربية عامة. فاذا تم مثل هذا التعاون فانه لا يخشى ان تنتقل قبيلة من قطر ما هربا من ضغط الحكومة الى قطر آخر طلبا لحريتها واستقلالها. واذا كان عمل الجامعة العربية لا يزال سياسيا نضاليا، فان من اهم المشاكل التي يجب ان تعنى بها في اعمال الايجابية هي مشكلة البداوة(٢

٣- يجب ان يصار الى تعديل اساسي في مديرية العشائر. فيتولى ادارتها رجال خبرة وكفاءة وتكون غايتها تنفيذ البرنامج المقدم اليها من قبل لجان مختصة لعملية التحضير. وعلى الحكومة ان تضع تحت تصرف المديرية القوة الكافية لفرض النظام وادخال الرهبة في نفوس القبائل. والبدوي يحترم القوة ويهابها.

٤- يجب ان تكون عملية التحضير موزعة بين اناس يدرسون المشكلة من مختلف نواحيها : فطائفة تنكب على دراسة نفسية القبائل واحوال كل قبيلة على حدة وتثقيفها على ضوء تلك الدراسة. وطائفة تعنى بمعالجة الاحوال الصحية واعداد الهيئات الصحية التي تعنى بمعالجة امراض البدو ومكافحة الامراض التي يتعرضون لها عند انتقالهم من البادية الى القرى والمدن. وتقوم لجنة اخرى باعداد برنامج تثقيفي من شأنه محو الامية وتسهيل سبل العلم للاحداث.

---

(١) سألت عبد الرحمن عزام باشا، الامين العام للجامعة العربية، عما اذا كانت الجامعة قد فكرت بهذه المشكلة فاجاب نفيا.

(٢) انظر :

واخيرا، لا بد من التنبيه الى ان عملية التثقيف يجب ان يكون رائدها التروى والاناة، فلا تكون غايتها القضاء على جميع تقاليد القبيلة ومعتقداتها (١) وبوسع المشرفين على عملية التثقيف الاستفادة من معتقدات القبيلة وعاداتها في سبيل هدم المجتمع البدوى وتحضير القبيلة، فاثارة التعاليم الدينية فيهم التى تحث على النظافة - مثلا - تسهل عليهم معالجة الاحوال الصحية. ويجب ان يكون برنامج التحضير بعيدا عن الشكليات والتعقيد، لان نفس البدوى تأنف من التعقيد والتركيب. ويجب ان يطبق البرنامج بصورة لا يشعر معها البدوى انه مفروض عليه. وعلى القائمين بهذه المهمة العظيمة ان يتحلوا بسعة الصدر والاخلاق الحميدة - ان تكون عندهم روح المبشر ونفسيته.

---

(١) انظر: Jamali pp: 100-113

Rabbath, Evolution , p: 254

المصـــادر العربيـــة

القـــران الكريــم وفهـرســه (فلـوجـل)

المعجم المفهـرس لالفـاظ الحديث النبـوى (فينســك ـ ليدن ، ١٩٣٣)

تـاج العروس

لســـان العرب

× × ×

ابــن الاثـيـر ، الكامـل في التـاريخ (ليدن ـ تورنبرج ، ١٨٦٨)

ابــن الاثير الجـزري ، النهـايـة في غريـب الحديث والاثـر (مصـر ، ١٣١٣هـ)

ابـو الفـرج الاصبهـاني ، الاغـانـي ، طبعة بـولاق

احـمد امـين ، فجـر الاسـلام ، الطبـعة الخامسـة (القـاهـرة ، ١٩٤٥)

احـمد امـين ، ظـهـر الاسـلام ، الجـــزء الاول (القـاهـرة ، ١٩٤٥)

البســـتاني ، دائـرة المعـارف

ابو اسماعيل محمد الازدي البصـري ، فتـوح الشـام ، صححه وليم ناسوليس الارلندي (كلكته ، ١٨٥٤)

محمد ابو الريحـان البيروني ، الاثار الباليـة من القـرون الخاليـة (ليبزج ، ١٨٧٨)

الجـاحـظ ، الحيـــوان (مصـر ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧)

جـــريـر ، ديـــوان (مصـر ، ١٣١٢ هـ)

حسـن ابرهيم حسـن ، تـاريخ الاسـلام السيـاسي ، الطبعة الاولى (القاهرة ١٩٣٥)

حسن ابرهيم حسـن وعلي ابرهيم حسـن ، النظـم الاسلامية (القاهـرة ، ١٩٣٩)

يـاقـوت الحموى ، معجـم البلـــدان (ليـبزك ، ١٨٦٦ ـ ١٨٧٠)

ابـن خــلدون ، تـاريخ العبر وديـوان المبتدا والخبـر (بـولاق ـ مصـر ، ١٢٨٤ هـ)

ابـن خــلدون ، المقـدمـة ، (المطبـعة البهية المصـر ـ مصـر)

جورجـي زيـــدان ، العرب قـبل الاسـلام ، الجزء الاول (مصـر ، ١٩٠٨)

ابـن سـعد ، كتـاب الطـبقـات الكبيـر (ليـدن ، ١٩٠٤)

الطـبرى ، تـاريخ الرسـل والملـوك ، (ليدن ، ج ، بارث ، ١٨٧٩)

عبـاس العزاوى ، عشـائر العراق (بغـداد ، ١٩٣٥)

عارف العارف ، القضاء بين البدو ، (القدس ١٩٣٣)
محمد كرد علي ، خطط الشام ، (دمشق ١٩٢٥)
فان فلوتن ، السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية ، ترجمة حسن ابرهيم حسن
ومحمد زكي ابرهيم ، (مصر ، ١٩٣٤) .
عودة القسوس ، كتاب القضاء البدوي (شرق الاردن ، ١٩٣٦)
القلقشندي ، صبح الاعشى ، (دار الكتب المصرية — مصر ، ١٩٢٢)
تقي الدين احمد بن علي المقريزي ، امتاع الاسماع ، الجزء الاول ، (القاهرة ، ١٩٤١)
القس سليمان صائغ الموصلي ، تاريخ الموصل ، الجزء الاول (مصر ، ١٩٢٣)
ثيودور نولدكه ، امراء غسان ، تعريب بندلي جوزي وقسطنطين زريق (بيروت ، ١٩٣٣)
ابن هشام ، السيرة ، (طبع غوتنغن — وستنفلد ، ١٨٦٠)
ابو محمد الحسن بن احمد الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، باعتناء داود هنريك مولر (ليدن ، ١٨٩١)
محمد بن عمر الواقدي ، فتوح الشام ، جزءان معا (مصر ، ١٢٧٨ هـ) .

* * *

المصادر الاجنبية

Sayed Ameer Ali , A short History of the Sarracens (London, I899)
GEORGE AORON BARTON, A Sketch of Semitic Origins (New-York, I902)
" " " , Semitic and Hamitic Origins (Phildelphia, I934)
GERTRUDE LOWTHIAN BELL, The Desert and the Sown, (London I907)
FRANK WILSON BLACKMAR, History of Human Society (New-York, I926)
E. S. BOUCHIER , Syria as a Roman Province (Oxford , I9I6)
JOHN LEWIS BURCKHARDT, Travels in Arabia , (London I929)
FRANCIS STUART CHAPIN, An Introduction to the study of Social Evolution (2d.rev.ed (New-York, I9I9)
H. CHARLES, Les Tribus moutonnières du Moyen-Euphrates (Damas? I939 ?).

GEORGE PERIGO CONGER, New Vews of Evolutions (New-York, 1929)

FUSTEL DE COULANGES, La Cité Antique, 25me Ed. (Paris, 1919)

CHARLES DARWIN, The Descent of Man (London. The Thinker's Library, 1945).

JEROME DAVIS and HARRY ELMER BARNES, An Introduction to Sociology, (U.S.A. Heath and Company, 1927)

STUART C. DODD, Social Relations in the Near East, 2d.ed. (Beirut, 1940).

CHARLES M. DOUGHTY, Traveils in Arabia Deserta, 2 vol. (Cambridge 1888)

RENE DUSSAUD, Les Arabes en Syrie avant l'Islam, (Paris, 1907)

FRANKLIN HENRI GIDDINGS, the Principles of Sociology (New-York The Macmillan Company, 1911)

CRISTINA PHELPS GRANT, The Syrian Desert (London 1937)

PHILIP K. HITTI, History of the Arabs, 2d.Ed. (London, 1940)

DAVID GEORGE HOGARTH, The Penetration of Arabia (U.S.A., 1904)

CLEMENT HUART, Histoire des Arabes , 2 vol. (Paris 1913)

MOHAMMED FADHEL JAMALI, The New Iraq; its problem of Bedouin Education (New-York 1934)

REGINALD HUGH KIERNAN, The Unveiling of Arabia (London, 1937)

HENRI LAMMENS, Les Ahabis et l'Organization militaire de la Mecque au siècle de l'Hégire (Paris, 1916)

" " , L'ancienne Frontière entre la Syrie et le Hidjaz (Le Caire ?)

" " , La Badia et le Hira sous les Omaiyades (? ; ?)

" " , Le Berceau de l'Islam , 2 vol. (Roma , 1914)

" " , L'Islam; croyances et institutions (Beyrouth, 1926)

HENRI LAMMENS , Etudes sur le Règne du Calife Omaiyade Ier
Beyrouth, 1908).

T.E. LAWRENCE, Seven Pillars of Wisdom, Deluxe Ed.(New York
1938)

GUSTAVE LEBON , La Civilisation des Arabes, (Paris, 1884)

GEORGE ROBINSON LEES, The Witness of the Wilderness (Green
and Co. London, 1909)

REUBEN LEVY, An Introduction to the Sociology of Islam
(London, 1930 - 33).

ROBERT MORRISON, The Modern State (London, 1928)

DAVID SAMUEL MARGOLIOUTH, Mohammed and the Rise of Islam
(New York, 1905).

JAMES ALAN MONTGOMERY, Arabia and the Bible (Philadelphia,1934)

LEWIS H. MORGAN , Ancient Society (New York, 1878)

SIR WILLIAM MUIR , The Life of Mohammed (Edinburgh, 1923)

COMMANDANT VICTOR MULLER , En Syrie avec les Bédouins,(Paris 1931)

ALOIS MUSIL , Arabia Deserta (New York, 1927)

" " , In the Arabian Desert (New York, 1931)

" " , The Manners and Customs of the Rwala Bedouins
(New York, 1928)

" " , The Middle Euphrates (New York, 1927)

" " , Palmyrena,(New York, 1920)

REYNOLD ALLEYNE NICHOLSON , A Literary History of the Arabs ,
2d.Ed. (Cambridge, 1930)

DE LACY O'LEARY, Arabia before Mohammad (London, 1927)

W.G. PALGRAVE, Central and Eastern Arabia , 3d.Ed.(London 1866)

HARRY ST.JOHN BRIDGER PHILBY, The Heart of Arabia , 2 vol.
(London, 1922).

EDMOND RABBATH, *L'Evolution Politique de la Syrie sous Mandat* (1928,Paris)

" " , *Revue internationale de Sociologie: Esquisse sur les populations syriennes* 46° année, Septembre -octobre (Paris 1938)

CARL R. RASWAN , *Moeurs et Coutumes des Bédouins*, tr. from English by G. Montandon (Paris ,193-)

ELLEN CHURCHILL SEMPLE, *Influences of Geographical environment* (London, 1911)

HENRI SHAEFFER, *The social Legislation of the Primitive Semites* (Yale University, 1915)

Robertson W. SMITH, ~~xximax~~ *Kinship and Marriage in Early Arabia* (London , 1907)

" " , *Lectures on the Religion of the Semites* London, 1923)

ARNOLD J. TOYNBEE and KENNETH T. KIRKWOOD, *Turkey* (New York 1927)

Les Tribus Nomades et semi-Nomades des Etats du Levant placés sous Mandat Français (Haut Commissariat, Beyrouth, 193o).

Les Tribus Nomades de l'Etat de la Syrie (Délégation Générale de la France Combattante au Levant) Beyrouth, 1943).

ALFRED MARSTON TOZZER, *Social Origins and Social Continuities* (New York, 1925

CONSTANT F. VOLNEY, *Oeuvres Complets de Voney* , (Paris,1860)

JAMES RAYMOND WELLESTED, *Travels in Arabia*, 2 vol. (London,1938)

WILLIAM WRIGHT, *Palmyra and Zenobia*, (N.D.)

SAMUEL M. ZWEMER, *Arabia : The Cradle of Islam*, 4th.Ed. rev. (New York, 1912).

ENCYCLOPAEDIA BRITANNIA, I4th Ed. (London, I929)

"   of Islam (Leiden , Brill, I9I3-36)

"   of Religion and Ethics (New York, I908)

"   of the Social Sciences (New York, I9I0-35).

Rapports à la Société des Nations sur la situation de la Syrie et du Liban.

o O o

الوضع القبلي
في سوريا

موجز الرسالة التي قدمها يس مغير في كلية الاداب والعلوم
بالجامعة الاميركية في بيروت لنيل شهادة استاذ في العلوم في العلوم السياسية

ظلت معرفة العلماء باحوال المجتمع الاول ، الى عهد قريب ، ضئيلة هزيلة وذلك لقلة وسائل الاستقراء العلمي آنذاك . ولا يزال الاضطراب والتباين قائمين في النظريات الاجتماعية حتى اليوم ، لان عملية التطور البشرى عملية معقدة وسير الحضارة تراكمي غير منتظم الخطوات . غير انه من المتفق عليه ان الاسرة هي اولى وحدات الاجتماع البشرى والصقها بحياة الجماعات البشرية . اما نشوء القبيلة فهو مرحلة طارئة قامت بفعل ظروف واسباب معينة كقساوة الاحوال المعاشية في بيئة ما وما تقتضيه هذه الاحوال من تنظيم اجتماعي خاص درءا للاخطار المحيقة بسكان هاتيك البيئة .

والحياة القبلية في سوريا بعيدة العهد تمتد الى بدء اتصال القطر السورى بالجزيرة العربية وحدوث المهاجرات المستمرة من الجزيرة كلما اصاب الجزيرة جدب وامحال او زيادة في السكان . وكانت سوريا محط انظار المهاجرين لانعدام الحواجز الجغرافية بينها وبين الجزيرة ثم لخصب الاراضي السورية . وقد كانت سوريا في القديم تعتبر جزءا من بلاد العرب . وفي العهد القديم من التوراة كما في النقوش الاشورية نقرأ اخبار الحياة القبلية . ثم ان العنصر العربي سجل وجوده بوضوح في تاريخ سوريا في قيام دولتي الانباط وتدمر . وكانت امارة الغساسنة – في القرن الخامس للميلاد – تعبيرا اخرا لقوة النفوذ العربي في سوريا . وبلغت امارة الغساسنة شأوا عظيما . وعلى الرغم من ان العرب كانوا اداة في يد الرومان يستعملونهم تحقيقا لمطامعهم ، فقد كان العرب حريصين على استقلالهم وحريتهم . نتبين من كل ذلك ، ان الحياة القبلية في سوريا هي منتوج عربي صرف فهي ، اذن ، بعيدة العهد .

وكان الفتح الاسلامي ، في بعض مظاهره ، احدى هاتيك المهاجرات من الجزيرة الى سوريا . وحمل العرب معهم عصبيتهم القبلية اينما ساروا وحيثما حلوا .

/...

ففي سوريا كان قوام الجيش الفاتح قبائل قحطانية ، فتمركزت قوة القحطانية في سوريا . ورفع معاوية عرشه على اكتاف الكلبيين (قحطانيين) . وما لبث ان اصبح النزاع بين الكلبيين والقيسيين جزءا من سياسة الدولة الاموية ، واصبح كل فريق نواة حزب سياسي معين . وقد ظلت منطقة دمشق مسرح حرب عنيفة طيلة عامين لان معديا سرق بطيخة من حديقة يمنى . وادى هذا الصراع الى تقويض دولة الامويين وتوقف الزحف العربي نحو فرنسا وانهيار دولة الاندلسيين .

وخفت حدة النزاع بعدئذ لزيادة حركة التحضر وظهور المذاهب الدينية والفكرية التي حولت ولاء العرب من نطاق القبيلة الى نطاق اوسع - بيد ان قسما كبيرا من القبائل ظل محتفظا بتقاليده ، ممعنا في بداوته او متمرجحا بين الحضارة والبداوة الى ان سيطر العثمانيون على هذه البلاد واصبحت سوريا جزءا من الامبراطورية العثمانية . ولم يكن للدولة العثمانية سياسة ثابتة تجاه القبائل ، وظلت هذه في حالها المتاخرة حتى نشوب الحرب العالمية الاولى . وحاولت القبائل الوقوف من الحرب موقف المحايد المتفرج . بيد ان الدول ارادت استغلال مواهبها العسكرية فعملت على حملها الى احد الطرفين المتحاربين . واستطاع الذهب الانكليزى ان يؤثر في موقف البدو ويحملهم على الانحياز الى جانب الحلفاء . فاحدث ظهور الذهب اضطرابا عظيما في المجتمع البدوى . ودبت فيه عوامل النشاط من جديد . فكان بامكان فرنسا وقد انتدبت للاخذ بايدى البلاد الى معارج الرقي والنهوض ان تضع حدا لذلك الاضطراب وتوجه النشاط وجهة صحيحة تتفق ومقتضيات نهضة الشعب السورى . ولكن منطق الاستعمار قضى على السلطات الافرنسية ان تنهج نهجا مخالفا . فقد ارادوا ان يزيدوا في الثلم الموجود في كيان هذا البلد اتساعا وان يقيموا منه حجة على عدم اهلية الشعب السورى لنيل استقلاله فيبرروا بقاءهم حاكمين ، وسلاحا موجها ضد القسم المتحرك النشيط لشل نشاطه . فوضعوا القبائل الرحل تحت سيطرة ضباط العشائر الافرنسيين مباشرة واعطوا للقبائل عامة دروسا في استخفاف الحكم المحلي وازدرائه . فاذا ما ابرمت الحكومة مثلا امرا مضادا بشان قبيلة ما سارع الافرنسيون الى نقضه وتسوية المسالة بصالح تلك القبيلة .

وكانوا يعملون على ابقاء القبائل على حالها التاخرية بل والحيلولة دون تطورها الطبيعي بشهادة ضباط العشائر انفسهم كما اثبتناها في الرسالة . وحسبك دلالة على صحة ما نقول ان تقارن وضع القبائل في سوريا مع ما كان عليه في العراق اثناء الانتداب البريطاني . فالعراك المسلح في العراق ضد النفوذ البريطاني كان يقوم على اكتاف العشائر . وكان معظم المتطرفين في الوطنية من

شيوخ العشائر ، اما القبائل في سوريا فقد كانت نقمة على الجهاد الوطني .

وظلت الامور كذلك حتى قيام الحرب العالمية الثانية . واخذت موجة النفوذ البريطاني تطغى على البلاد والذهب الانكليزي يلعب دوره من جديد . وانتقلت القبائل من احضان الافرنسيين الى احضان البريطانيين او تتمرجح بين هؤلاء واولئك . فلما اخذت البلاد باسباب الاستقلال وانقشع النفوذ الاجنبي عنها ، انتقلت مصلحة العشائر الافرنسية واصبحت مصلحة وطنية باسم مديرية العشائر العامة .

× × ×

ننتقل من هذا العرض التاريخي الى دراسة القبيلة العربية وذكر اهم خصائصها . واول امر يجب ان نقرره هو نوع الاجتماع في القبيلة العربية ما اذا كان ابويا ام امويا . وقد قال نفر من المؤرخين والمستشرقين بوجود الاموية في المجتمع العربي القديم مستدلين على ذلك من وجود اسماء قبائل في صيغة التانيث او من طبيعة الزواج المتبع لدى بعض عرب الجاهلية - زواج المتعة - وقد حاولنا ان ندحض هذه الاستدلالات ونخلص الى ان نظام الاجتماع عند العرب كان يتمرجح بين الاموية والابوية ، وان الثانية كانت شائعة في المراكز التجارية الغنية وعند القبائل المتحضرة .

اما قول سميث ان الطوطمية كانت معروفة عند العرب القدماء فلم نقبل به بتاتا ، لان القبائل المسماة باسماء حيوانات (وهذا اقوى دليل عنده) لا ترجع - كما يلاحظ المستشرق الافرنسي هوارت - الى عهد بعيد . ثم لان للطوطمية طقوسا معقدة لا تسمح بساطة الحياة العربية بالقيام بها . ولا يزال البدوي نفورا عن تكاليف الدين وطقوسه .

ونظام الحكم في القبيلة العربية من نوع بسيط يجمع بين الديموقراطية والشورية والارستقراطية الاستبدادية ، ولكنه اقرب الى الاولى منه الى الثانية . فالرئاسة في القبيلة ليست وراثية ، بل تقوم على اساس ثقة الافراد بها . والشيخ الذي يفقد المزايا المتطلبة منه يفقد احترام الناس له وطاعتهم اياه .

تلك هي حال القبيلة العربية . غير انني وجدت ان الصورة التي عرضتها تظل ناقصة اذا اغفلنا دراسة الخلق العربي والبدوي خاصة ، واول حقيقة يجب ان نقررها في دراستنا هذه هي انقسام العرب بحسب نوع بيئتهم ودرجة رقيهم الى قسمين : شعب

راحل ، وشعب مقيم . ولفظ العرب - كما نقل القلقشندى - يشمل الجميع والاعراب يخص البداة منهم . ان الاعراب اقسى طبعا واخشن حديثا من الاخرين وعنايتهم بالامور العقلية قليلة لا نشغالهم بتحصيل معاشهم ، وهم اقل اكتراثا للدين من اخوانهم اهل الحضر . وقد نود بهم القرآن ووقف محمد منهم موقف الحيطة والحذر . ولم يتاثر البدو بالاسلام كثيرا ولم يدخلوا فيه الا مكرهين او طامعين في الغنيمة . وكان كلا الطرفين ينظر نحو الاخر نظرة امتهان وازدراء . الا اننا نستدرك فنقول ان العرب جميعهم كانوا يعيشون قبائل وان التفاوت بين البدو منهم واهل الحضر انما هو في درجة نكد العيش . وكان القرآن ومحمد يندد ان بالاعراب لنفاقهم وليس لانهم اعراب ، وقد جاءت آيات تشهد بايمان بعضهم واخلاصهم للاسلام .

فاذا تقدمنا الى دراسة الخلق البدوى نجد ان اهم ميزة فيه هي الفردية ، اى تلك النزعة الاستقلالية التواقة الى الانفلات من كل قيد والثورة على كل سلطان . وهذه الصفة تفسر لنا جميع محاسن ومساوئ الخلق البدوى الاخرى . وهي نتيجة لارستقراطيته واعتداده بنفسه اللذين هما بدورهما نتيجة بيئته المعاشية . ومن صفاته الشجاعة التي لا تبلغ حد حب سفك الدماء والتقتيل . والصبر سلاحه الوحيد الذى يكافح به حياته المملوءة بؤسا وشقاء . ثم ان حياته الشاقة هذه اضعفت فيه الخيال وابعدت عن نفسيته القيم الروحية السامية .

ان هذه الصفات ان هي الا نتيجة للبيئة التي يعيشون فيها . فالكرم مثلا هو نتيجة بؤسهم ، والشجاعة نتيجة تكتلهم القبلي الذى هو بدورهم نتيجة نوع بيئتهم . فاذا اخذ البدوى باسباب الحضارة يغدو ارق طبعا واوسع خيالا وارقى مداركا . واخيرا فانه لا يجوز ان نخلط البدوى مع البربرى ، فحياة الحل والترحال طريقة علمية للمعاش كالحياة الصناعية الحديثة .

القبائل السورية : تنحصر هذه القبائل في ثلاثة انواع : القبائل نصف الثابتة كالعكيدات والبقارة ، ونصف الرحالة كالموالي والحديديين ، ثم الرحل : شمر وعنزة . والرحل هم الذين يمثلون الحياة القبلية اصدق تمثيل وعليهم وحدهم تنطبق مميزات القبلية التي اشرنا اليها آنفا ، فلا يصح اطلاق لفظ البدو على غيرهم . اما القبائل الاخرى فقد انحرفت عن حياة البداوة فتاثرت عاداتها بهذا الانحراف . ولذا فقد افردنا فصلا واحدا عن هذه القبائل ووجهنا بعدئذ عنايتنا نحو البدو ، مع العلم ان الكلام عن البدو يشمل القبائل الاخرى بمقدار ما هي قريبة

من البداوة . وفي الفصل المختص بالقبائل نصف الرحل ونصف الثابتة عددت اهم هذه القبائل وذكرت مواطنها واعدادها وحالتها الاقتصادية وبعض المعلومات عن اوضاعها السياسية . وانتقلت بعدئذ الى القبائل الرحالة وذكرت بتفصيل تاريخ وجودها في سوريا ومواطنها واعدادها واوضاعها السياسية فلا حاجة لذكر ذلك في هذه اللمحة الموجزة واكتفي بالاشارة هنا الى ان شمر كانت اولى القبائل النازحة من الجزيرة الى سوريا . وقد حصلت اول هجرة لها في اواخر القرن السابع عشر وحاولت ان تستقر في منطقة حمص ـ حماه ـ اوعلى ضفاف الفرات من حلب حتى الميادين ولكنها اصطدمت بالموالي الموجودين آنئذ في تلك المنطقة ثم بالعنزيين (الفدعان والحسنة) الذين جاءوا سوريا في اواسط القرن السابع عشر فاتجهت الى الجزيرة الفراتية وتمركزت هناك . وقد رايت ان استعراض الحياة البدوية في سوريا لا يكون وافيا الا بذكر شيء عن الصلبة هذه الجماعات البدوية الرحالة المبعثرة في بلاد العرب كافة . ولم اجد في جميع المراجع التي رجعت اليها بشان الصلبة ايضاحات مقنعة عن اصل هذه الجماعات . بيد انني وجدت ان الراي الذي يقول بارجاعهم الى الصلبيين هو اقرب تلك الاراء الى الحقيقة مستدلا على ذلك من ملامح وجوههم واختلافهم عن سائر البدو في منطقهم وعدم تعدد الزوجات عندهم وفي تعاطيهم امورا هي في نظر البدو خسيسة . ثم في اعراضهم عن حياة الغارات والحروب التي تميز المجتمع البدوي .

يعيش البدوي حياة بسيطة والغزو يكاد يكون مبعث النشاط فيها . وهو المجال الوحيد التي تبرز فيه مواهب البدوي وهو نظام اختص به البدو وحافظوا عليه على الرغم من تحريم الاسلام له ومحاولة الحكومات المتعاقبة منعه . وله نظام معقد اشرت الى بعض نواحيه بتفصيل وبينت ان الغزو هو في الدرجة الاولى عبارة عن حركات رياضية اكثر منه وسيلة للسلب والتقتيل . والى جانب الغزو تشغل حياة البدوي امور اخرى كالقنص ومجالس القهوة التي تعد اعظم مدرسة يتلقون فيها معارفهم .

اما الحياة الصحية في البادية فهي رديئة لقذارة المياه وسوء التغذية وفقر وسائل المعالجة عندهم . ولكن حياة التنقل التي يعيشونها والتعرض للهواء الطلق ووهج الشمس المحرقة خلقت في اجسامهم بعض المناعة وخفت نسبة الامراض في البادية الى حد كبير بعكس ما هي عليه عند القبائل نصف الرحل . وقد وصفت في شيء من التفصيل بعض امراض البدو كالبجل وامراض العين والكلى والجدري .

اما الحياة الاقتصادية عند البدو فهي عسيرة واسباب العيش شاقة ، ثم ان مستوى الحالة الاقتصادية متقارب بين افراد العشيرة ، اى انه لا يوجد استقطاب في الثروة . ذلك لان الفوارق المالية والعلمية بين افراد الشعب الواحد لاتكن بارزة الا في المجتمعات المتحضرة . وقد اخذ شيوخ البدو يشذون عن هذه القاعدة ويجمعون الثروة متخذين منها دعامة لتوطيد مركزهم في العشيرة بعد ان اضاعوا كثيرا من الفضائل المتطلبة من الشيخ .

ثم عرضت الى قلة تاثر البدو بالدين والى بعض الاوهام والخرافات التي لا تزال عندهم كالبشعة (وهي وسيلة تتبع في معرفة المتهمين بالاجرام بان يلحس المتهم قطعة حديد حامية وتثبت براءته في حالة عدم احتراق لسانه) . وكتشاؤمهم من نعيق البوم وتاثير العين وغير ذلك .

وفي فصل خاص عن الاحوال الشخصية اشرت الى انحطاط مركز المراة عند البدو وتعدد الزوجات واسبابه لتكثير النسل ومساعدتهم على تحمل مشاق الحياة . اما الفوارق بين التشريع الاسلامي والعرف البدوى فاهمها في عدد الزوجات الذى حدده الاسلام باربعة بينما البدو وان كانوا لا يبقون في عصمتهم الشرعية الا اربعة الا انهم يبقون الزوجات المطلقات في بيوتهم . والفارق الثاني هو في حرمانهم الاناث حق الارث .

لا يشمل التشريع المطبق في البلاد القبائل الرحل فقد ترك لها امر حل مشاكلها وفق العادة والعرف . ونحن نجد ان العرف البدوى ان هو الا تشريع معمول به كسائر التشاريع الاخرى . واختلاف الشرع الاسلامي عن قوانين المجتمع البدوي هو ان حياة البداوة ليس فيها سلطة قضائية تسن الشرائع بصورة شعورية وفقا لتطورات تلك الحياة . انما هنالك اشخاص يدعون العوارف يقضون بينهم فالعرافة اذن هي بمنزلة القضاء في المجتمع المدني الحديث ولها نظام خاص وتنقسم بحسب اهليتها لحل المشاكل الى اقسام عديدة . وقد اشرت الى بعض الاختلافات في القضاء البدوى عن الشرائع الاخرى كالسرقة من قبيلة معادية فهي غير محرمة بل محبذة ومستحسنة .

وفي الفصل الاخير تكلمت عن تحضير البدو واهمية الاسراع به لاكمال التجانس القومي في البلاد وقد اشرت الى ان مصلحة العشائر الحالية يعوزها التنظيم والكفاءة فلا يرتجى منها خير ومن واجب الحكومة ان تولي امر العشائر اهتماما جديا فعالا . ان حياة البداوة خاضعة للعامل الطبيعي

فاذا لم يتغير هذا العامل لا يرتجى زوال المجتمع البدوي فايجاد الاراضي اذن ونقل البدو من حياة حل وترحال الى حياة زراعة واستقرار هما مفتاح المشكلة . والاراضي الصالحة ~~في سوريا~~ للزراعة في سوريا متوفرة . ثم اشرت الى ان عملية التحضير يجب ان تنهج سبلا معينة كتفكيك المجتمع القبلي وضرورة تعاون الحكومات العربية في وضع سياسة مشتركة نحو البدو وتاليف لجان من الاخصائيين تدرس كافة مناحي التحضير وتدعمها ميزانية كافية . وقد نبهت في الختام الى ان برنامج التحضير يجب ان يكون بعيدا عن الشكليات والتعقيد فيبطق بصورة لا يشعر معها البدوي انه مفروض عليه .